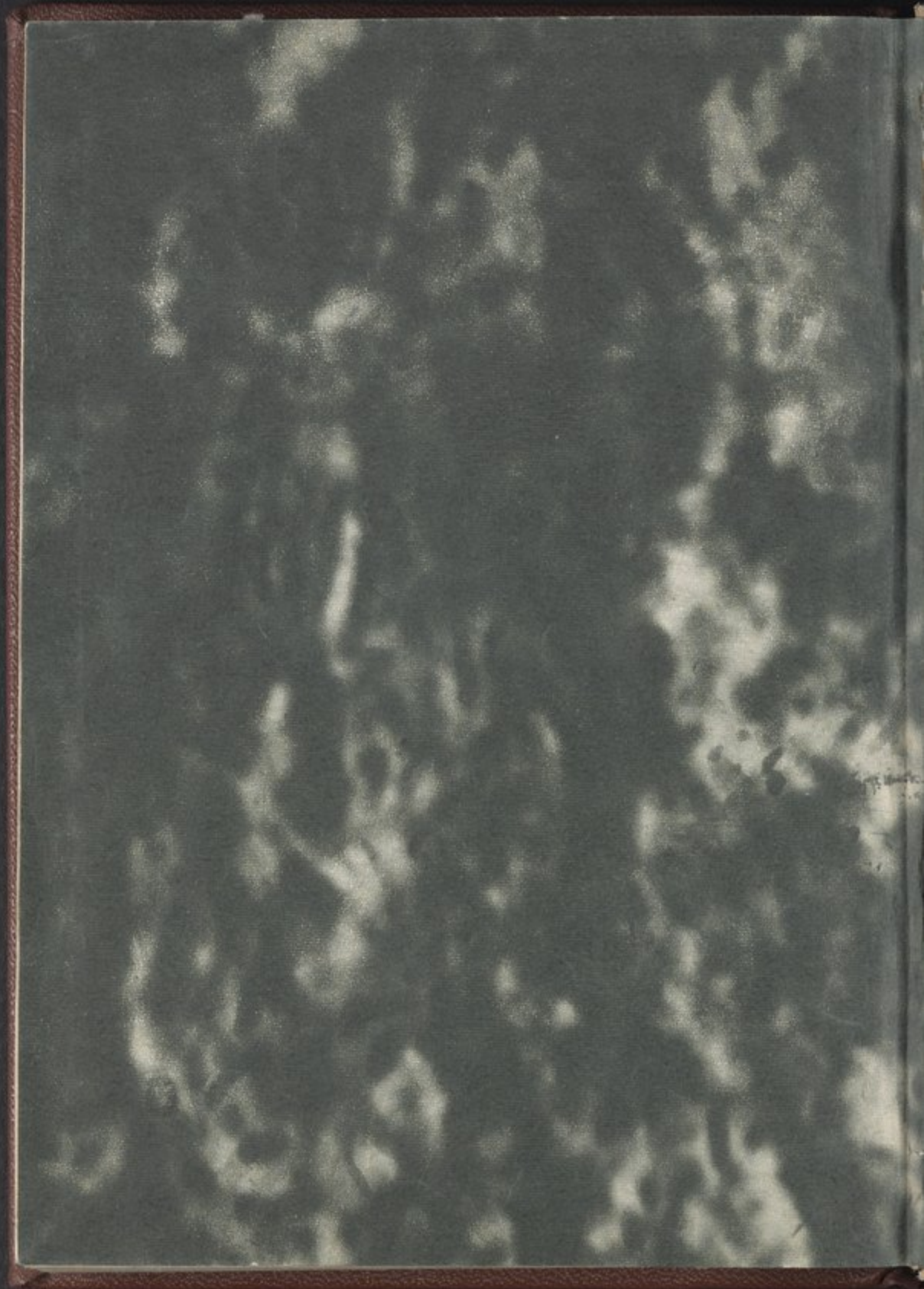
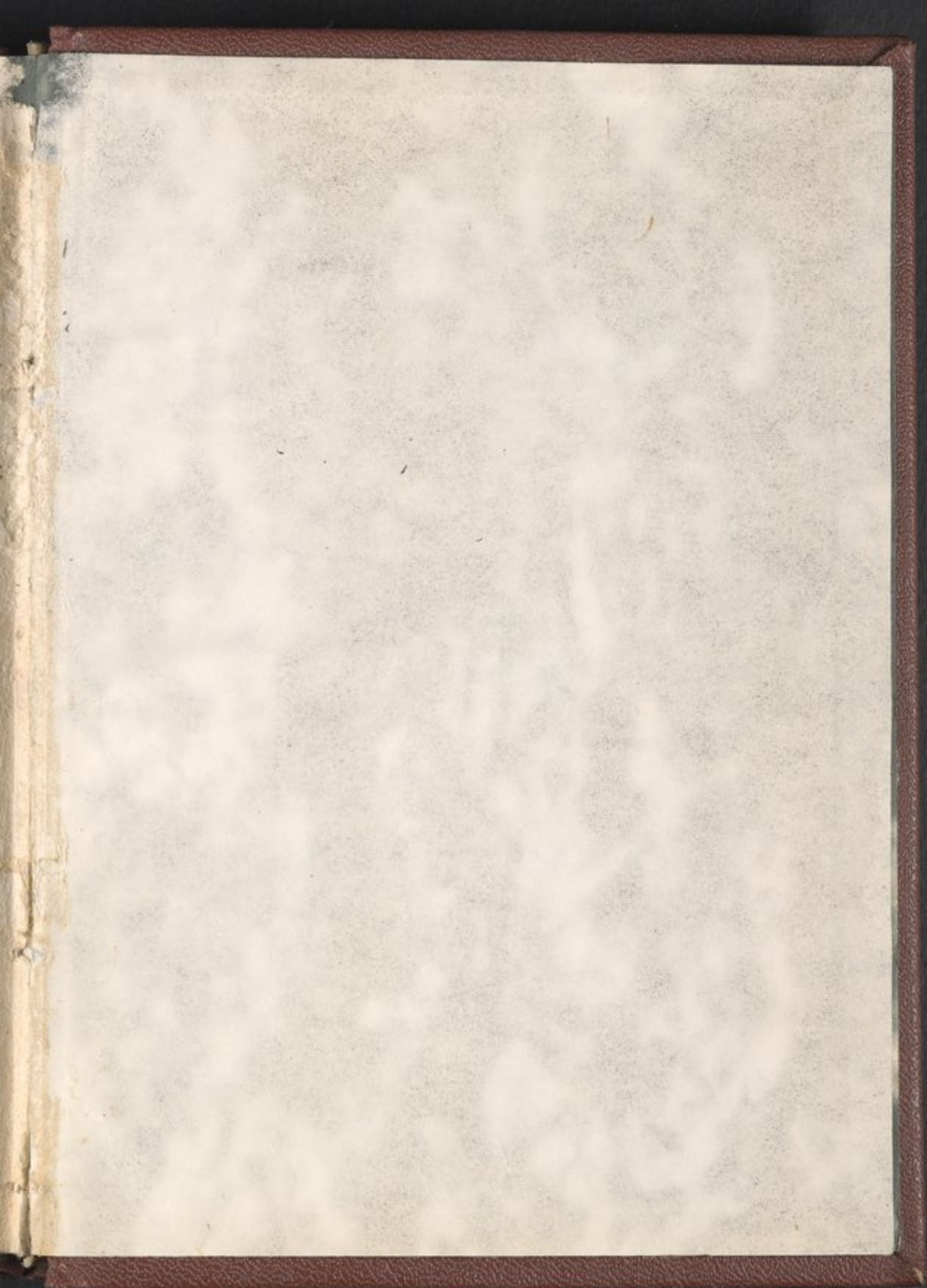




P
78
K
T
18
C







توفيق الحكيم

PJ

al-Hakim, Tawfiq

7828

Tārīkh hayāt masīdah

K52

T37X

1938

C.2

تاريخ حياة مَعْدَة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٨

OCLC
60506388

B 12441405
13341091

كتب توفيق الحكيم

التي نُشرت

محمد { (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ومطبعة المعارف
عام ١٩٣٦)

شهرزاد { (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤ وترجم ونشر في
باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج ليكونت عضو
الأكاديمية الفرنسية)

أهل الكهف : (مطبعة مصر ومطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)

عودة الروح { (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣ . وترجم ونشر بالروسية
في ليننجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية في باريس عام
١٩٣٧) (في جزئين)

أهل الفن : (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

مسرحيات { المجلد الأول : سر المتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة في
القلب ، جنسنا اللطيف . (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)
توفيق الحكيم

عهد الشيطان : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

«تابع» كتب توفيق الحكيم

التي نُشرت

المجلد الثاني : الخروج من الجنة ، أمام شباك التذاكر ،
الزمار ، حياة تحطمت . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة
وتوفيق الحكيم والنشر عام ١٩٣٧)

يوميات نائب
في الأرياف (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)

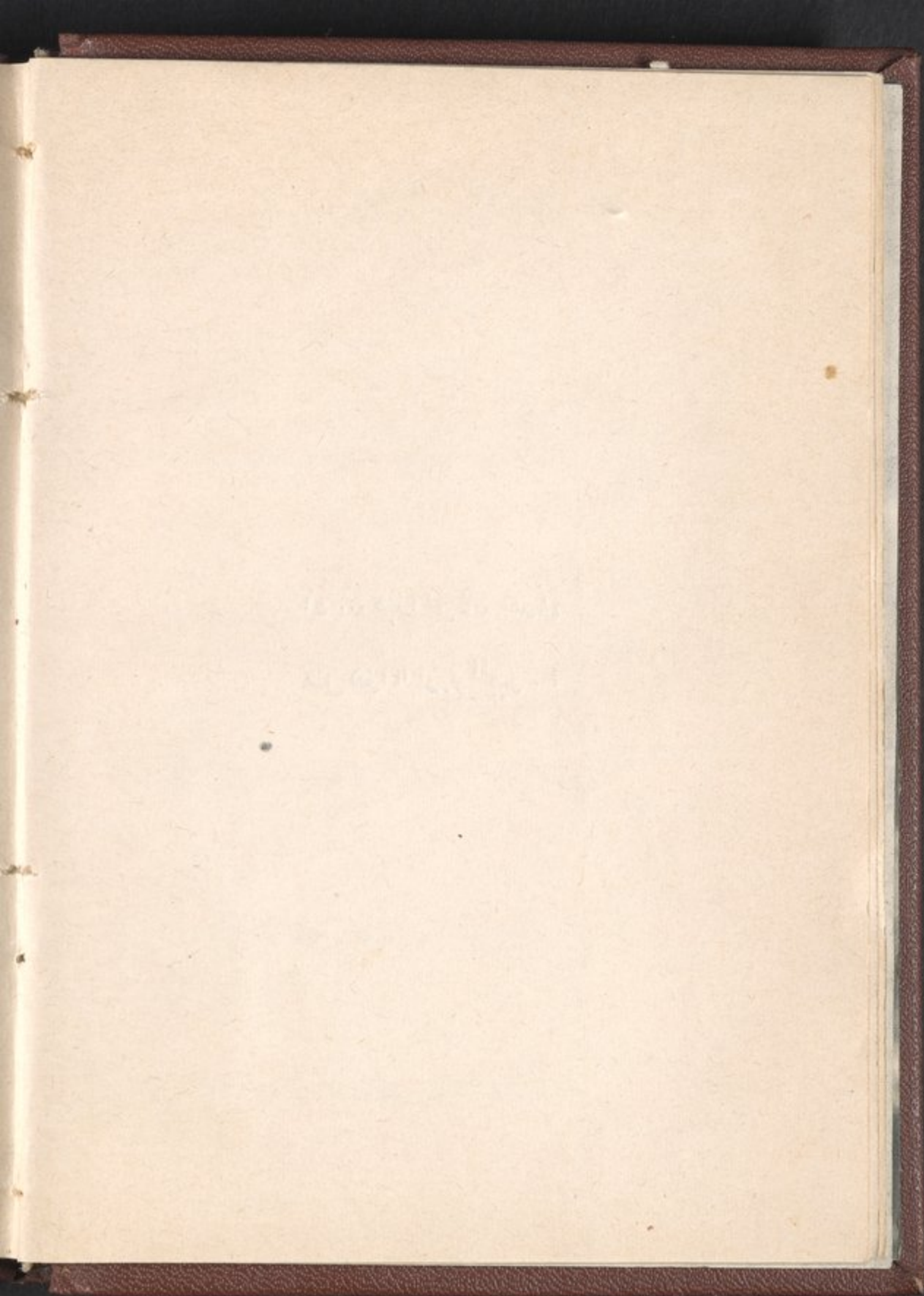
عصفور من
الشرق (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

تحت شمس
الفكر (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

تاريخ حياة
معدة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)

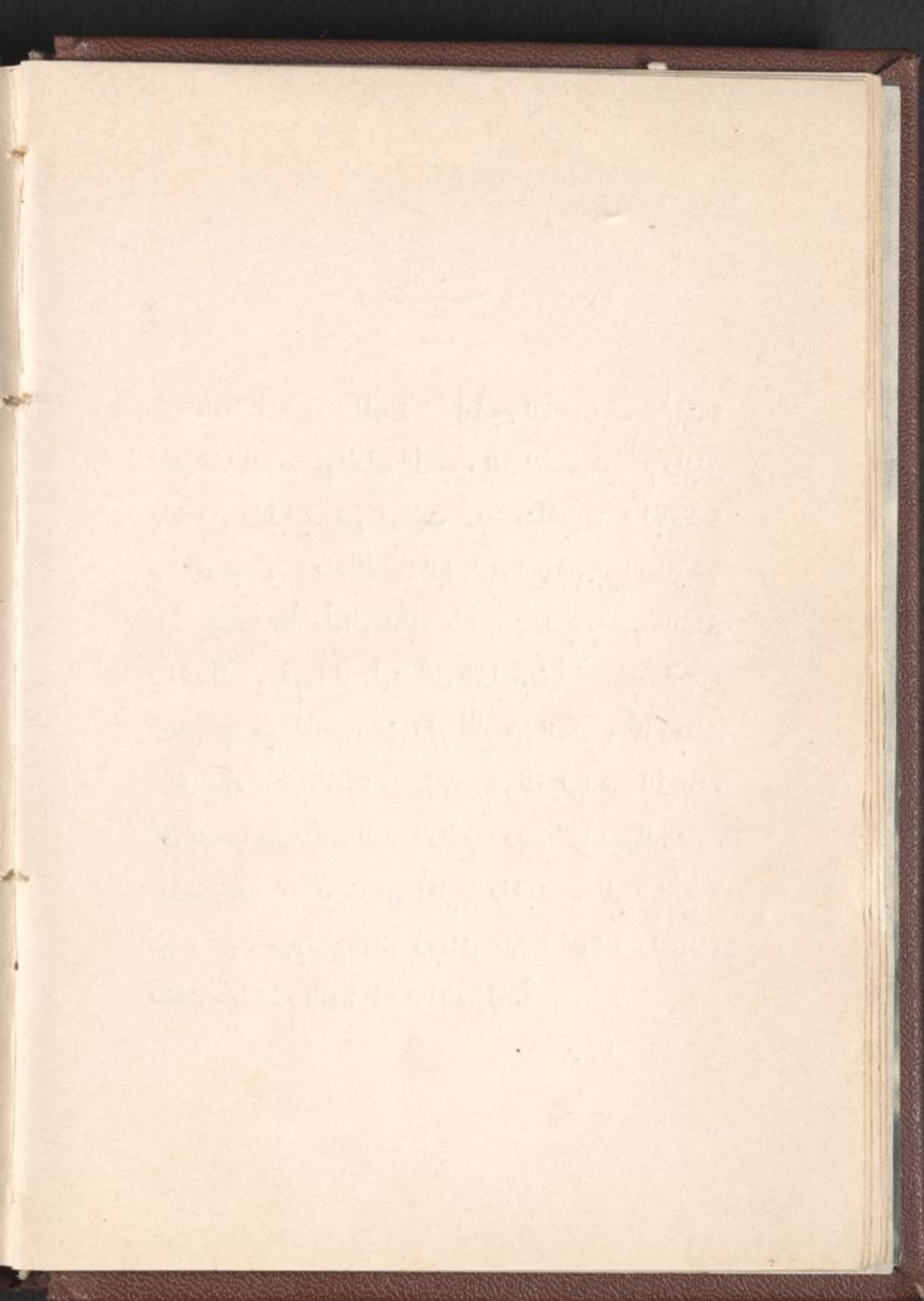
آه... بهذا الوطء لمعدني

مثل هذا التاريخ المجيد . !



بيان

مادنا في صدر «المعدة» ، فهذين للناس كيف «طبخت»
لهم هذا اللون من ألوانه الأدب . لقد استحضرت اللحم والبقل
والتوابل والأبازير من هوانيت أربعة مشاهير : «الجامع»
و«ابن عبد رب» و«الخطيب البغدادي» و«بريع الزمان» .
فقد بهرني حقاً وأسأل لعالي ما وجدت لديهم من اللذائذ
والطرائف . غير أنني رأيت كل هذا مبغراً ضمن بضاعتهم ،
وملقى على غير نظام ، حتى وقع الطلح على السكر . كما وجدت
أكثر هذه الأشياء شائعة مكررة بنصرها وتفصيلها عند الأربعة ،
كل يضعها من جانبة نفس الوضع ، ويعرضها عين العرصة .
فهلأت بدى مما تخبرت من أطايرها وذهبت به الى «مطبخ»
فنى ، حيث مزجتة وخلطتة وجعلت منه «عجينة» واحدة ،
صنعت منها هذه القصة المتصلة الفضول ما



الفصل الأول

انتصف النهار . وصاح مؤذن الظهر ، لا من
مسجد ذلك الحى من أحياء « المدينة » ، لكن من بطن
« أشعب » : أشهر الطفيليين فى عصره ، وأظرفهم
حديثاً ، وأقبحهم وجهاً ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم صوتاً
وأحذقهم فى فنون الغناء .

وكان جالساً إلى معشوقته « رشاً » من أول ذلك
النهار ، يحادثها ويضاحكها ويطارحها الغناء منشداً :

دموع عيني لها انبساط

ونوم عيني به انقباض

وكانت الحسنة متكئة على فراش من ديباج
أخضر ، فى دارها الصغيرة ، أمام بستان قد أزهر بنبت
الربيع . فأجابته مترنمة ، والسحر والفتنة يكادان ينطقان
فى عينيها :

هذا قليل لمن دهرته

بلحظها الأعين المراض

فتنه العاشق ورفع عقيرته :

فهل لمولاتي عطف قلب

أو للذي في الحشا انقراض

فأجابته الجميلة في ابتسامها الفاتن ، ولفظها العذب

وصوتها الرخيم :

إن كنت تبغى الوداد منا

فالود في ديننا قراض

فتنه أشعب هذه المرة تنهداً طويلاً ، وأرسل

بصره إلى النافذة ، ورأى ميل الشمس ، فتأمل والتفت

يمنة ويسرة ثم قال للحسناء صاحبة الدار :

— مالى لا أسمع للطعام ذكراً ؟ !

فتغير وجه الجميلة وقالت :

— سبحان الله ! أما تستحي يا شيخ ؟ أما فى وجهى

من الحسن ما يشغلك عن هذا ؟ !
فسكت أشعب كالخجل . ثم جعل ينظر إلى
وجهها وعينها متمسكا بأهداب الصبر والقناعة .
فقالت له :

— امض في غنائك ، فإنك حسن الغناء . أسمعني
صوتك لم أسمع من قبل . ما هو أحسن الغناء عندك ؟
فأجاب أشعب بغير تردد :
— هو نشيش المقل !

فقالت له في شيء من الامتعاض والتأنيب :
— أهذا كلام يقال في مثل هذا الموقف الذي
نحن فيه ؟

— صدقت . لقد كان يجمل بي أن أتحدث عن الحب
الذي في الحشا .
وأمسك بالعود مرة أخرى . فأسرعت الجارية
تقول :

— نعم ، صف لى ما فى الحشا من الحب .

فنظر إليها العاشق مليا :

— وماذا كنت أصنع إذن منذ الصباح ؟

— زد فى الوصف .

— وصف ماذا ؟

— ما فى الحشا من الهوى .

— من « الهوا » .. هذا والله صحيح .

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

إذا كان فى بطنى طعام ذكرتها

وإن جعت يوماً لم تكن لى على ذكر

ويزداد حبي إن شبت تجدداً

وإن جعت غابت عن فؤادى وعن فكرى

ولم تر الجارية مع صاحبها هذا حيلة ، فقامت تهيئ

له الطعام . ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب ببغيته الحقيقية

ووضع أمامه الخوان . وكان هذا العاشق الولهان إذا أكل
ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانهر ، وتربد
وجهه ، ولم يسمع ولم يبصر . فتناول القصعة وهي
كجمجمة الثور فأخذ بحضنها ، وما زال ينهشها طويلاً
وعرضاً ورفعاً وخفضاً ، لا يفصل ثمرة قط عن ثمرة
ولا يرمى بنواة قط ولا ينزع قعماً ولا ينفي عنه قشراً ،
ولا يفتشه مخافة السوس والدود . فلما رأت صاحبتة
ما يعتريه وما يعتري الطعام منه ، لم تزد على أن همست
كالمخاطبة لنفسها :

— هذا والله هو العشق !

ثم نظرت إليه ، وقد انتقل إلى ألوان أخرى من
الطعام جعل يخاطبها قبل أن يمد إليها يده :

— بارك الله فيك من « فالودج » صاف يقرأ نقش
الدرهم من تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كأنها خد
الحبيب ! بارك الله فيك من خبز رقاق كأنها آذان الفيلة !

وهجم بيديه كأنه طالب ثأر ، فابتدرته الجارية

قائلة :

— أتحبني ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت إليها . ولم يبد عليه أنه سمع
منها شيئاً . ومضى في التهامه ومضغه . فتوسلت إليه أن
يتكلم فصاح متبرماً :

— أما سمعت قول من قال : « إذا كنت على مائدة

فلا تتكلمن في حال أكلك ، وإن كلمك من لا بد لك

من جوابه فلا تجبه إلا بقول نعم ، فإن الكلام يشغل

عن الأكل ، وقول « نعم » مضغة .

فضحكت القينة . ثم قالت :

— ولكنك لم تجبني حتى بقول « نعم » .

فنظر إليها وفيه ممتلئ نظرة من يسألها عما قالت .

فقد نسي ، فأجابت :

— سألتك « أتحبني » ؟

فلم يلفظ حرفاً ؛ وأين له الفم الذى يلفظ شيئاً ؟ !
فسكتت الجارية لحظة ، ثم رأت أن تحتال عليه
وتخرجه فقالت :

— أتحب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر إليها
نظرة المعتذر المشغول عن الجواب ، غير أنها مضت فى
تضييق الخناق عليه :

— أتحب عمر بن الخطاب ؟

وصادفت العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ،
فأجابها على عجل ويده مسرعة إلى الخوان :
— ما ترك الطعام فى قلبى حباً لأحد !

قام أشعب عن الخوان الذى كان ، وهو يتجشأ
ويقول لصاحبه :

— جعلت فداك ما أكرمك ! إذا كان غداً فاصنعى

لى هريسة ، فأنت أحذق بها .
فقلت له باسمه :

— إنك لشديد النسيان . أما تذكر أنك من أيام
قد تشهيت على « هريسة » ، فبعثت بها إليك ؟
فصاح العاشق طرباً :

— نعم . فإنى أتشهى عليك إذن « لوزينج » رق
قشره واشتدت عذوبته غريقاً فى سكر ودهن لوز ...
يشد فؤاد الحزين ويرد نفس الشجين ، ابعثى لى به غداً
أصلحك الله ، مع شىء من النبىذ وما يصلحه .
فقلت :

— أنسيت أنى بعثت إليك منذ لىال هذا اللوزينج
وهذا النبىذ .

فقال :

— إذن فإنى أشتهى ، حفظك الله وأبقاك ، ثريدة
دكناء من الفلفل ، رقطاع من الحمص ذات جناحين من

اللحم فأضرب فيها كما يضرب الولي السوء في مال اليتيم .

فقالت كالمخاطبة لنفسها ، ساخرة :

— أبقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون في

القلب ، وحبك ليس يجاوز المعدة !

— لم أسمع منك ! ماذا قلت ؟

— لا شيء ! أخبرني أنت . أين دارك ولماذا لم تدعني

يوماً إلى طعامك !

فنظر إليها أشعب نظرة الجزع والذعر :

— داري ! أما علمت أنني أسكن عند الكندي !

— ومن الكندي ؟

— هو أبخل أهل الأرض طرّاً ، وهل يستطيع

ساكن أو جار أن يصنع طعاماً دون أن يبيعت إلى

صاحب الدار بطبق . إنه لا يزال يقول للساكن وربما

للجار : « إن في الدار امرأة حبلى ، وإن الوحمى ربما أسقطت

من ريح القدور الطيبة ، فإذا طبختم فردوا شهوتها ولو

بغرفة أو لعقة . فإن لم تفعلوا ذلك بعد إعلامي إياكم
فكفارتكم أن أسقطت غرة عبد أو أمة » ، فكان
بذلك ربما يوافي منزله من قصاع السكان والجيران
ما يكفيه الأيام . فيأكل هو وعياله ويقول لهم : « أنتم
أحسن حالا من أرباب هذه الضياع . فلكل بيت منهم
لون واحد وعندكم ألوان » ، فهل تريدن أصلحك الله ،
أن أدعوك إلى دار مثل هذا الرجل ؟

فضحكت وقالت :

— أفقر هو ؟

— إنه أغنى أهل المدينة !

فصمتت الجارية لحظة . ثم نظرت إلى أشعب

ملياً وقالت :

— ولكني أريد أن أموت وآكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلاً ثم أجاب :

— مهلا سيدتي . سأدعوك إن شاء الله إلى طعام

وشراب وغناء...

— متى ؟

— يوم يحين وقت ذلك .

ثم أسرع فاستوى قائماً ومد إليها يده مودعاً .
فمدت إليه يداً صغيرة كأنها حلية من عاج . فلمح في
إصبعها خاتماً . فاستبقى يدها في يده وقال في صوت
يسيل رقة ولطفا :

— سيدتى جعلت فداك ! ناوليني هذا الخاتم الذى
فى إصبعك لأذكرك به .

فمسحت يدها فى رفق وتضاحكت فى خبث وقالت :
— إنه ذهب وأخاف أن تذهب .

ثم أسرع فالتقطت من الأرض عوداً يابساً سقط
عن شجرة قرب النافذة وأعطته إياه قائلة :
— ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

الفصل الثاني

جاء العصر وأشعب يتسكع في الأسواق إلى أن انتهى به المطاف أمام بستان من بساتين الكندي . فوقف وأرسل بصره ، فوجد صاحبه جالسا تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلا فيه لحم سكباج بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أربع بيضات . فاقترب منه ومربه مسامحا عليه . فرد الكندي السلام قائلا :

— هلم عافاك الله .

وإذا أشعب أسرع من خطف البرق في صحن السماء قد انثنى راجعا يريد أن يعدى جدول الماء . فصاح به الكندي وهو يأكل :

— مكانك ، فإن العجلة من عمل الشيطان .

فوقف أشعب بأخوذاً ... فسأله الكندى :

— تريد ماذا ؟

فأجاب أشعب :

— أريد أن أتغدى .

فحملق فيه الكندى :

— ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح

لك مالى ؟

فقال أشعب :

— أو لست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

— ويلك ! لو ظننت أنك هكذا أحق ما رددت

عليك السلام . ماذا كان بيننا غير سلام ورد السلام ،

أى كلام بكلام . ولكنك تريد أن يكون كلام بفعال ،

وقول بأكل . فهذا ليس من الإنصاف .

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل

أشعب ينظر إليه لحظة ثم قال له :
— لقد رأيتك تأكل وحدك .

فبلغ الكندي ريقه ثم قال :

— ليس علىّ في هذا الموضع مسألة . إنما المسئلة
على من أكل مع الجماعة . لأن ذلك هو التكلف .
وأكلى وحدى هو الأصل . وأكلى مع غيرى زيادة
في الأصل . وإذا كانت الوحدة خيراً من جليس السوء .
فإن جليس السوء خير من أكل السوء . لأن كل
أكل جليس . وليس كل جليس أكلاً !
فقال أشعب متخابثاً :

— إنما أردت أن أؤكدك لأسخيك وأنفي عنك
اسم البخل .

فأجاب الكندي وهو يلقي في حلقه زيتونة :
— لا أعدمى الله هذا الاسم . فإنه لا يقال فلان بخيل
إلا وهو ذو مال . فسلم إلى المال وأدعنى بأى اسم شئت .

فقال أشعب :

— ولا يقال أيضاً فلان سخي إلا وهو ذو مال .

فقد جمع هذا الإسم الحمد والمال ، أما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت أحسهما وأوضعهما .

فقال الكندي :

— بينهما فرق .

فقال أشعب :

— ما هو ؟

فأجاب الكندي :

— في قولهم بخيل تثبت لإقامة المال في ملكه .

وفي قولهم سخي إخبار عن خروج المال من ملكه .

فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظاً ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعاً . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته

قوة ، أما الحمد فهو ربح وسخرية والاستماع له ضعف !

وماذا ينفع الحمد — إذا جاع البطن وعرى الجلد

وضاع العيال وشتت الحساد ١٤

وظل يأكل ، وأشعب ينظر إليه ، حانقا في دخيلة
نفسه على هذا اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه
تلطف له ودنا منه قائلا :

— وما عليك لو جلست إليك ساعة أغنيك حتى
تطرب وأضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب .
فصاح السكندى :

— لا أريد أن أطرب الساعة ولا أن أضحك .

— وما يمنعك من ذلك ؟

— يمنعني منه أن الإنسان أقرب ما يكون من
البذل والعطاء إذا طرب وضحك .

فسقط في يد أشعب ولم يدر من أى مدخل يدخل
إلى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له باباً أغلقه . ولم يقنط
أشعب مع ذلك . وخطر له خاطر أعجبه . فأسرع يقول
لصاحبه :

— لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضى أن ينزل
دارك الخالية وقبل دفع الأجر وقضاء الحوائج والوفاء
بالشرط .

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :
— وأين هو عافاك الله !
— إذا رأيت أن أدعوه ..
— متى ؟

— الليلة إلى عشائك .

— عشائي !

وعاد إلى قطوبه . فأراد أشعب أن يهون عليه
الخطب فقال له :

— لا تتكلف شيئاً لهذا الضيف . إنه يرضى بما

حضر .

فأسرع الكندي يقول :

— ليس يحضر شيء . وقولك « بما حضر »

معناه أنه لا بد من أن يقع على شيء .

فقال أشعب :

— قطعة مالح ...

— وقطعة مالح أليست هي شيء ؟

— نكتفي بالشرب إذن على الريق .

— لو كان عندنا نبيد كنا في عرس .

فرأى أشعب أن يخجله ويستحته فقال له :

— أنا أحضر النبيد .

فقال الكندي للفور :

— إذا صرت إلى إحضار النبيد فأحضر أيضاً

ما يصلح للنبيد . .

فقال أشعب :

— ليس يمنعني والله من ذلك ومن إحضار النقل

والريحان إلا أن أحسب أنا صاحب الدعوة وليس يجوز

ذلك ، إلا أن يكون لك فيها أثر ...

فتفكر الكندي لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :
— لقد انفتح لي باب : لكم فيه صلاح وليس عليّ
فيه فساد ...

والتفت إلى نخلة عالية ملساء كأنها ثعبان قائم
في طرف من أطراف البستان وقال :

— في هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ،
وإن نحن وجدنا إنساناً يصعدهما ، ولم يطيرا ، فهما قد
صارا ناهضين ، جعلنا الواحد « طباهجة » والآخر
« كردجا » فكان نعم العشاء . فهل لك يا أشعب في
صعود هذه النخلة ...

فنظر أشعب إلى النخلة وقد كاد رأسها يمس
السحاب ، وصاح :

— هذه لا تُصعد ولا يرتقي عليها إلا إذا كان اليوم
آخر عمري ، وأردت من ذلك دق عنقي . اللهم اغنني
عنك وعن طعامك يا شيخ !

وأراد أن ينصرف يائساً . ولكنه فكر في أمر
عشائه وليس في المدينة الليلة وليلة ولا عرس ينسل إليه
فعاد ينظر إلى النخلة . فرأى مرة أخرى أن علوها
الشاهق يملأ النفس رعباً . وأدرك أن صعودها لا يقدم
عليه إلا من طلب الموت ، فأخبر الكندي أن يعفيه وأن
يطلب في الجيران إنساناً يصعد لها . فسألوا الجيران فلم
يقبل أحد أن يفعل ذلك . ودلهم بعض الناس آخر الأمر
على أكار تلك حرفته . فما زال الرسول يطلبه حتى وقع
عليه ، فلما جاء ونظر إلى النخلة تردد هو أيضاً ، فما زالوا به
يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة . فلما
صار في أعلاها طار أحد الفرخين . فأنزل الآخر وسامه
إلى الكندي ، ووقف يتصبب عرقاً في انتظار الأجر ،
فأخرج الكندي « فلساً » وضعه في يد الأكار . فنظر فيه
ملياً ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا
جميعاً :

— فلساً بعد هذا الجهد كله ، وهو غنى . . . لو كان

أعطى درهما على الأقل ، إنه ذو مال !

فالتفت إليهم الكندي صائحاً :

— إنى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم !

وأشاح بوجهه عنهم والتفت إلى أشعب قائلاً :

— الآن قد ظفرنا بالعشاء . فابعث لنا فى طلب

صاحبك الساكن الجديد :

فنظر أشعب إليه شزراً :

— فرخ يمام واحد ! هو « الطباهج »

و « الكردناج » . وهو كل العشاء !

فتفكر الكندي لحظة ثم قال :

— انتظر ، لا تبرح :

وأشار إلى الأكار الواقف يتميز غيظاً . فترضاه

وأغراه وذهب به . وغبرا ملياً . ثم عادا يحملان أرزاً

بقشره . وليس معهما شئ مما خلق الله إلا ذلك الأرز .

فلما صار الكندي إلى بستانه كلف الأكار أن يحشه
في مجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه .
إلى أن فرغ الأكار من ذلك كله فكلفه الكندي أن
يطحنه على ثوره وفي رحاه . حتى فرغ من طحنه .
فكلفه أن يغلي له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء
الحار لأنه به أكثر نزلا . ثم كلف الأكار أن يخبزه .
ثم طلب إلى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران
أن ينصبوا له في الجدول الشصوص للسمك . وأن
يسكروا الدراجة على صغار السمك كي لا تدخل في
السواقي ، وأن يدخلوا أيديهم في جحرة الشلابي ، حتى
يصيبوا من السمك شيئا يجعل كبابا على نار الخبز تحت
الطابق فلا يحتاج من الحطب إلى كثير . فما زال أشعب
منذ ذلك العصر إلى الليل في كد وجوع وانتظار إلى أن
أذن الله بالفرج وفرغ من أداء نصيبه من العمل . وجاء
الخبر من بيت الكندي أن اليمامة التي كان قد بعث بها لتطبخ

طباهجاً ، قد نضجت فصاح الكندى صيحة الظفر :
— يا أشعب ! هلموا إلى عشاى ، وهنيئاً مريئاً
لكم طعامى ؛ فأحضر صاحبك إلى دارى تجدون الخوان
قد نصب كأنه إيوان كسرى وعرش هرقل !

جری أشعب إلى صديق له من طرازه يدعى
« بُنان » . فقص عليه الأمر وتوسل إليه أن يأتى معه
إلى دار الكندى فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ
أشعب من وعده . فإذا انتهى العشاء . وعاین الصديق
الدار كان له أن يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب
الفسخ . ولم يكن عند بنان فى تلك الليلة ما يتعشى به هو
أيضاً . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره
الخاوية لوقته مع أشعب . . وسارا فى الطريق فأوصاه
أشعب أن يفهم الكندى أول الأمر أنه قابل الكراء
وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط .

فالتفت بنان إلى صاحبه قائلاً :

— قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى

الوفاء بالشرط ؟

فأجاب أشعب :

— في شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ،

وبعر الشاة ، ونشوار العلوقة ، وأن لا يخرجوا عظاما

ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور

الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبل في بيته .

...

أقبل الضيفان على دار الكندى فألفياه قد أعد

الخوان وجلس في انتظارهما يتمظ ويقول :

ومن البلية في الموائد أن يرى

قوم جياع في انتظار القادم

فقعد أشعب من الفور أمام الطعام وأجلس زميله

جواره وهو يقول :

سواء علينا قدموا أو تأخروا

نوافي مع الطباخ ساعة يغرف

وأشار إلى صاحبه بنان بعد أن غمز به كوعه :

— لقد انتظرت صاحبي هذا انتظار الآكل للشبع !

فقال الكندي :

— انظرته إذن قليلا ؟

فأجاب بنان للفور :

— نعم ، لقد انتظرني مقدار ما يأكل إنسان

رغيفا !

وتناول الخبز . فقال الكندي :

— لقد انتظرك إذن طويلا .

ولم يلتفت الضيفان إلى صاحب الدار ولم يجيباه بعد

ذلك . وأشعب وبنان إذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد

معهما حظ في الطيبات . فما جاءت القصعة فيها الثريدة

كهيئة الصومعة مكحلة بتلك اليمامة المعهودة حتى أخذ

أشعب الذى يستقبله ثم أخذ ما عن يمينه وأخذ ما بين
يدين صاحب الدار ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل
ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه . فلما أن نظر
الكندى إلى الثريدة مكشوفة القناع مسلوكة عارية
والفرخ كله بين يدين أشعب وزميله إلا قطعة جناح
صغيرة بين يديه ، تناولها فوضعها قدام الضيف الجديد
واحتسب بها فى سبيل الكرامة والبر والضيافة ، وهو
يتميز ويقول ليخفى غيظه الكظيم :

— قالت الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الغداء »
فلو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا . وذلك أن
الرجل لا يعرف مقدار ما أكل حتى ينال من الماء ،
وربما كان شبعان وهو لا يدري ..
فقال بنان :

— شبعان ! والله نحن إنما نسمع بالشبع سماعاً من
أفواه الناس !

ثم مد يده إلى الخبز . فغمزه أشعب هامساً :
— تمهل وتحشم ، لا يفتن إلينا وينفر منا . أنت
لا تعرفه : لأن يطعن طاعن في الإسلام أهون عليه من
أن يطعن في الرغيف الثاني !

فسحب بنان يده ، وهو يهمس في أذن أشعب :
— أو يريد أن يكون بين الرغيف والرغيف
فترة نبي !

ولحظهما الكندي وظن أنهما يتساران في أمر
الخبز ويستصغران حجمه . فأمسك برغيف ورطله في
يده وقال :

— يقولون إن خبزي صغير ! فمن الزاني ابن الزانية
الذي يستطيع أكل رغيفين منه !

فبهت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، وإذا الباب قد
فتح عليهم ودخل منه جار للكندي ، قرأ الجميع السلام
وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض الكندي عليه

الطعام ، فاستحيا أشعب من الرجل وهو أيضاً جاره
في السكن ، فما تمالك أن قال له :

— سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل .

فتأدب الرجل وقال حياءً :

— قد والله فعلت .

فأسرع الكندي يقول :

— ما بعد القسم بالله شيء .

فكتف الرجل بذلك كتفاً لا يستطيع معه قبضاً

ولا بسطاً ، وتركه في مكانه لا يريم . ولو مد الرجل يده

بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقة

موقفه فتحرك منصرفاً خجلاً . فرق له أشعب وقال له :

— أين تريد ؟

فقال الرجل :

— إلى منزلي أتوضأ .

فقال له أشعب :

— ولماذا لا تتوضأ ها هنا . فإن الكنيف خال
نظيف ، والغلام فارغ نشيط ، وليس من الكندي حشمة ،
ومنزله منزل إخوانه .

فدخل الرجل فتوضأ . والكندي ينفخ من الغيظ ،
ولحظه أشعب فقال له :

— هون عليك . إنما كل بغيتي أن أسخيك وأنفي
عنك التبخيل وسوء الظن .
فقال الكندي :

— فهمنا أن تدعو الناس إلى غذائي لتسخيني ، ولكن
لا أفهم أن تدعوهم ليخروا عندى !

وعاد الرجل فجلس عن كشب وأخرج من جيبه
رقعة قدمها إلى الكندي قائلاً :

— جاءني رقعتك اليوم وفيها أنك تريد على أجر
الدار خمستين ، لأن ابن عمي ومعه ابن له قد نزل على ضيفين !
فأجاب الكندي على الفور :

— نعم ، إذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين
احتملنا ذلك ، وإن كان إطماع السكان في الليلة الواحدة
يجر علينا الطمع في ليال كثيرة .
فقال الرجل :

— ليس مقامهما عندنا إلا شهراً ونحوه .
فقال الكندي :

— إن دارك بثلاثين درهما وأنت ستة ، أى لكل
رأس خمسة . فأما وقد زدتم رأسين فلا بد من زيادة
خمسيتين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين .
فقال الساكن متعجباً :

— وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على
الأرض التي تحمل الجبال ، إن ثقل مؤنتهما على أنا
دونك . ما هو إذن عذرنا لأعرفه ؟

فترك الكندي الأكل واتجه إلى ساكنه قائلاً :
— عذرى واضح كالنهار . والخصال التي تدعو إلى

ذلك كثيرة ، وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء
البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤونة . ومن ذلك إن
الأقدام إذا كثرت كثر المشى على ظهور السطوح
والصعود على الدرج فينقشر الجص وينكسر العتب ،
وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق وجذب
الأقفال تهشمت الأبواب وتقلعت الرزات . فساكن
الدار هو المتمتع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذى يبلى
جدها ويذهب عمرها بسوء تديره ، وإنه ينسى أن
المالك ما أسكن داره إلا بعد أن كسحها ونظفها لتحسن
فى عين المستأجر ، فإذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخرابا
لا تصلحه إلا النفقة الموجهة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترساً
إلا سرقة ولا ساماً إلا حملة ، وإذا أراد الدق فى الهاون ترك
الصخرة المجمولة لذلك ودق على الأجذاع حيث جلس
تهاوناً وقسوة وغشا . هذا فضلاً عما يحدثه من الشغب
مع الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا

لشكايتهم . فإذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم ، وأن نطالب
بضعة دراهم لإصلاح الفساد المنتظر . سمعنا عبارات
الاحتجاج وطولبنا بإبداء الأعذار والأسباب .

وسكت الكندى فجأة . فقد حانت منه التفاتة
إلى الضيفين فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام
وأمعناهما في محو أثر الخبز والسمك ، إلا « شبوطة »
كان قد نجح في وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها
لسمنها وكبرها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عند
نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايبها ، فما كاد يحسر عن
ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد أشعب عليها ، فلما
رأى هذه اليد في السمكة رأى الموت الأحمر والطاعون
الجارف وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتلى ، ولم يلبث أشعب
حتى قبض على قفا الشبوطة فانتزع الجانبين جميعاً
واكتسح ما على الوجهين ، فلما أكل أشعب جميع
أطايبها وبقي الكندى في النظارة ، ولم يبق في يده مما كان

يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى
أشعب يفرى الفرى ويلتهم التهاماً صاح به :

— حسبك لا يقتلك الطعام !

فأجاب أشعب وفمه ممتلئ :

— إذا كان الأجل موقوتاً ، فلأن أموت شعباً

أحب إليّ من أن أموت جوعاً !

وقنط الكندى من الأكل مع هذين الرجلين ،

فانصرف إلى الحديث مع جاره الساكن واتفق معه على

الزيادة في الكراء كما طلب ، وشيعة إلى الباب ثم عاد إلى

الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء

يؤكل . وبنان يتجشأ ويقول .

— لعن الله « القدرية » . . من كان يستطيع أن

يصرفني عن أكل هذا الطعام وقد كان في اللوح المحفوظ

أنى سأكله !

فكظم الكندى غيظه وقال في نفسه :

— تعال غداً فإن وجدت شيئاً فالعن « القدرية »

والعن آباءهم وأمهاتهم !

وجلس الضيفان بعد أن غسلا أيديهما يتخللان

من الطعام ، وهما على خير ما يكون الإنسان راحة

وهناء . وجعل الكندي ينظر إلى خوانه منتهك الحرمة ،

عليه بقايا العظام والأشواك كأنها جثث القتلى بعد

المعركة . فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل .

وشعر بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما

يقول في نبرة المتوسل :

— أسألكم بالله الذي لا شيء أعظم منه ، أنا الساعة

أيسر وأغنى ، أوقبل أن تأكلوا طعامي ؟

فقالا معاً :

— ما نشك أنك حين كنت والطعام في ملكك

كنت أغنى وأيسر .

فقال :

— فأنا الساعة أقرب إلى الفقر أم تلك الساعة ؟

قالا :

— بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر .

فلم يحتمل الكارثة وصاح في نبرة ألم وندم وغضب :

— آه ! من ذا الذى يلومنى إذن على ترك دعوة قوم

قربونى من الفقر وباعدونى من الغنى ! وكلما دعوتهم

أكثر كنت من الفقر أقرب !

فرأى أشعب الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل

على هذه العقيدة ، فأسرع يقول له :

— ولكن قد فاتك أمر : إنك الليلة إنما تنفق

اليسير لتجنى الكثير . ما هذا الطعام القليل النفقة

الخفيف المؤونة إلى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا

الساكن الجديد كراء لدارك الخالية ! أما كنت تقول

الساعة إن الغرم بالغنم ! .. فأنت والله فى آخر الأمر

الغانم الرابع !

فتفكر الكندي لحظة وبدا عليه الاقتناع فاطمأن
في الحال قلبه وانفرجت أساريره وضحك للمرة الأولى
ضحكة الارتياح .. وقال :

— إذن فادع لي !

فرفع أشعب يديه إلى السماء وقال :

— من الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة
الصدر وكثرة الأكل ونقاء المعدة ، وأمتعك بضرر
طحون ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والأمن والعافية !
هذه دعوة مغفول عنها !

الفصل الثالث

جعل أشعب وبنان يدلان الكندى ويفكهانه
ولم يشكا أنه سيدعو إليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بيته
إلى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن الكندى جعل يتغافل
ويتناوم . فامح له أشعب بما يصبو إليه قائلا :

— إن المجلس والله .. ليس فيه غناء ولا نبيذ فهو

كالبيت الحرب !

فلم يسمع لكلامه صدى . وطال تغافل الكندى
فلم يجد أشعب بدا من التصريح . فأقبل عليه يقول :

— اجعلها مرة ليس لها أخت . ودعوة لن تعود
إلى مثاتها . واضحك واطرب ليلة في العمر بقليل من نبيذ !
ولما بلغ منه ومنهما المجهود ورأى الكندى أنهما مقيمان
مصران ، غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ،

قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع أكواب ووضعها بين يدي
أشعب وقال له :

— الآن غنّ واطربنى والأمر لله !

فانقض أشعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان
شرب العطشان الصادى . وأفراغ أشعب كأسه فى جوفه
وهو يرفع عقيرته منشداً :

إمدح الكأس ومن أبدعها

واهيج قوماً قتلونا بالعطش

إنما الكأس ربيع باكر

فإذا ما لم نذقها لم نعش

فطرب الكندى للصوت ولكنه قال كالمخاطب

نفسه :

— والله ما قتلوكم بالعطش . ولكنكم أنتم قتلتم

أنفسكم بالشره .

وملاً كأسه وقال :

— غنَّ أيها المغنى !

فملاً أشعب كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلن بقول اللائم اللاحى

واشرب على الورد من مشمولة الراح

كأساً إذا انحدرت فى حلق شاربها

أغناك لألاؤها عن كل مصباح

فصاح الكندى من الطرب صيحة مدوية دهمت

الضيفين . وأفرغ فى حلقه كأساً أخرى وهو يقول :

أسقنى حتى ترانى مائلاً

وترى عمران دينى قد خرب

وسكر الكندى . وأمعن أشعب فى الغناء :

ما زلت آخذ روح الدن من لطف

وأستبيح دماً من غير مجروح

حتى انثنت ولى روحان فى جسدى

والدن مطّرح جسم بلا روح

فطرب الكندي ولم يدر ما يصنع من شدة
الطرب ، فشق قميصه وقال لأشعب :

— إفعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى ..

فنظر إليه أشعب دهشاً . . . فصاح الكندي :

— ويلك ، شق أيضاً أنت قميصك !

فقال أشعب جزعاً :

— أصلحك الله ! أتريد أن أشقه وليس لى غيره !

فقال الكندي :

— شقه وأنا أ كسوك غداً .

فأجاب أشعب :

— فأنا إذن أشقه غداً .

فقال الكندي :

— وأنا ماذا أصنع بشقك له غداً ؟

فقال أشعب :

— وأنا ماذا أرجو من شقه الساعة ؟

ولبثا في ذلك وقتاً يتساومان وبنان ينظر إليهما
ويعجب . وأخيراً صاح في الكندي :

— ما كل هذا ؟ إني لم أسمع قط بإنسان يقايس
ويحاور وينظر في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من
غلبة الطرب ! إذا كنت قد طربت الآن حقاً . فاكسه
الآن القميص !

وهزت الكندي نشوة الخمر ونخوة الوهم ، في
غفلة من غريزته الناعمة . فقام يتعثر إلى قميص جديد
عنده فأتى به وكساه أشعب . فلما صار القميص على
أشعب ، خاف البدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات
السكر ، فتحين الفرص وأوهم الكندي أنه ذاهب
لقضاء حاجة على أن يعود ، ثم مضى توا إلى منزله
بالقميص فجعله من فوره « برشكانا » لامرأته .

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندي
وبنان ، وهما ما برحا في انتظار عودة المطرب . فانطرح

بنان على الأرض جاعلا فراشه البساط ومرفقته يده ، ولم
يكن في المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندي
إكرام ضيفه فأخذ المخدة فرمى بها إلى بنان فأبأها وردها
عليه . وأبى الكندي ، وأبى هو . ولبثا هكذا يتطارحان
التأدب ويتقارضان المجاملة في لسان متلثم وجذع متمايل .
إلى أن صاح صاحب البيت آخر الأمر :

— سبحان الله ! يكون أن تتوسد مرفقك وعندي

فضل مخدة !

فأذعن بنان وأخذها فوضعها تحت خده . ومر
بعض الليل دون أن يغرق بنان في النوم ليدس الفراش
ورداة الموضع . وظن الكندي أن الضيف قد نام . فجاء
قليلا قليلا حتى سلّ المخدة من تحت رأسه . فلما رآه
بنان قد مضى بها ضحك وقال :

— قد كنت عن هذا غنيا .

فارتبك الكندي وقال :

— إنما جئت لأسوى رأسك .

فقال بنان :

— إني لم أكلمك حتى وليت بالمخدة .

فأجاب الكندى :

— كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة في يدي ،

نسيت ما جئت له ، والنبيذ ما علمت والله يذهب
بالحفظ أجمع !

وأراد الكندى أن يرد عليه المخدة . فأبى بنان ،
فألح وألح . وعادت المناظرة والمحاوراة والمطارحة من
جديد . فلم يخلصهما منها إلا غلبة النوم الثقيل في الهزيع
الأخير من الليل . فانطرحا كأنهما حجيران والمخدة عن
كسب منهما منطرحاة منفردة وحيدة .

وطلع النهار وأحس بنان ضرب الشمس في وجهه
فنهض ونظر حوله مذعوراً ، فأدرك ما كان فيه . ورأى

الكندى ممدداً يغط على مقربة منه . فأسرع إلى نعله
فخمله في يديه وانطلق إلى الطريق قبل أن يستيقظ ...
وعلا النهار ... وأقبل بعض أهل البيت ينقرون
على باب الحجرة فصحا الكندى . وفرك عينيه وألقى
نظرة على المكان فهم منها كل شيء ، فبحث عن الضيفين
فلم يجدهما فصاح صيحة منكرة ووضع نعله في قدميه
وانطلق إلى مسكن أشعب فدق عليه الباب ، فخرج له
فقال له :

— أين الساكن ؟

— لقد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه .

— وأين القميص ؟

— إنك قد وهبته إياه .

فقال الكندى فى رفق مصطنع :

— أما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه

وصدقته وطلاقه لا يجوز . وبعد فأنى أكره أن لا يكون

لى حمد ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر
فرد على القميص حتى أهبه لك صاحباً عن طيب نفس ،
فانى لا أحب أن يذهب شىء من مالى باطلا .

فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندى أن
مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلى عليه هذه الحجج .
فأقبل عليه يقول متلطفاً :

— يا أشعب ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا
يؤاخذون بشىء ، فرد القميص عافاك الله !
فقال أشعب مبتسماً :

— إنى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى
إلى الأرض حتى جيئته لامرأتى ، وقد زدت فى الكمين
وحذفت المقادير ، فإن أردت بعد هذا كله أن تأخذه
نخذه .

فقال الكندى للفور :

— نعم آخذه . لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح
لامرأتك .

ومد ذراعه . فقال أشعب :

— إنه عند الصباغ .

فقال الكندى :

— هاته .

— ليس أنا أسامته إليه .

فعلم الكندى أنه قد وقع . وأن لا حيلة له ولا منفذ

ولا أمل ولا رجاء . فقال فى زفرة حارة من كبد محروق :

— بأبى وأمى ، صدق رسول الله حيث يقول :

جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه :

السكر !

الفصل الرابع

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسول
يحمل رقعة من القينة الجميلة تستنجزه فيها الوعد، وتخبره
أنها راحلة في الغد إلى شأن من شؤونها في الكوفة،
وتعرض له في ختامها بحفاء قلبه وزيف وده وتبدي له
ريبتها فيما يظهره لها من الوجد . فلم يدر أشعب
ما يفعل ولا كيف يجيب . فأمسك آخر الأمر بالرقعة
وكتب في ذيلها :

أنا والله أهـواك

ولكن ليس لي نفقة

فأما كنت تهويني

فقد حلت لي الصدقة

فذهب الرسول بهذا الرد إلى الجارية ، وخرج

أشعب إلى الطريق يستنشق الهواء ويفكر في أمر
العشاء ، وإذا العشيقة قد أقبلت بعد قليل . فما كاد يراها
حتى وقف في مكانه حائراً لا حراك به .

فسلمت عليه وقالت :

— لا تخش شيئاً . إنما أتيت لأودعك قبل رحيلي
غداً . والله لو لا اشتغالي اليوم بإعداد حوائجي ومتاعي
وإخلاء داري لو افيتك بما تشهيت عليّ من تلك الأطعمة
التي يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !
فقال لها :

— وماذا أنت صانعة في الكوفة ؟ أذهبة للغناء ؟
فقالت :

— نعم ، إنك فيما أظن قد رضىتنى حذاقة به ومعرفة .
فقال :

— نعم ، ولكن اختلفي أيضاً إلى مجمع مولى الزبير
فإنه حسن الغناء ، فاعلقي من غنائه أصواتاً عشرة . فإنك

والله خليقة أن تفتني الناسك وتخرجيه من صومعته
ساجداً لك .

فقالت :

— كنت أود أن أتزود منك الليلة بصوت أو

صوتين ...

فسقط في يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته

فلم ير ما يصنع . وتفكر لحظة . ثم قال في نفسه :

— مالى إلا منزل بنان .

ونظر إليها ثم قال :

— اتبعينى !

وسار وهو يقلب الأمر على وجوهه ، إنه لا يجهل

أن وقوع طفيلي على طفيلي لا يجوز . ولكن وجود

الحسنة معه فيه العذر والحجة ، وقد يرق بنان لجمالها

فيتسع صدره وتنبسط يده ويوفى الضيافة حقها . واقتربا

من الباب . فاستوقفا . ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج

إليه فقال همساً :

— أكمل الخير ! معى وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما
فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر وإملاق .

فقال بنان على الفور :

— قد شكوت أنت والله مما كدت أباديك أنا

الشكواه !

غير أنه نظر إلى ناحية المرأة ورأى رشاقة قدها

فقال :

— ائت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف أشعب ، واستقبلها بنان بالتحية ،

فسفرت فإذا هو يرى وجهاً رقيقاً كأنه كوكب ، به

عينان مملوءتان سحراً وأنف كأنه قصبة دروهم كأنه

جرح يقطر دماً ، وردت عليه التحية بلسان فصيح ،

فأخار بصره وذهب لبه وجل خطبه وتلجج لسانه

وتغللت رجلاه . ثم ثاب إليه عقله فدعاها للجلوس في

صدر المكان وسألها قائلاً :

— أيتها الجارية ! إنسية أنت أم جنية ، سمائية
أم أرضية !

فضحكت القينة وقالت :

— بل إنسية أرضية واسمى رشا .

فسر أشعب واطمأن قلبه لما رأى من افتتان بنان .
وأنشد بصوته الرخيم وصناعته البارعة :

رشا لولا ملاحته

خلت الدنيا من الفتن

كل يوم يسترق له

حسنه عبداً بلا ثمن

وأشار بأصبعه إلى بنان ، فقال بنان :

— إى والله عبد بلا ثمن . لو سمحت بذلك سيدتى !

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

— إنك والله لتختلسين الأرواح بحلاوة ابتسامتك

وتذهلين الألباب ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت
تجيد الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر . ثم انطلقت
تغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبداً ليست بذات قروح
أبى الناس كل الناس لا يشترونها
ومن يشتري ذا علة بصحيح
فطرب أشعب . وقام بنان من فوره فجلس بين
يدى الجارية وقال :

— كل مملوك لى حر وكل امرأة لى طالق ، لو
كانت الدنيا لى كلها صرراً فى كمى لقطعتها لك ، فأما
إذ لم يكن لى من ذلك شىء ، فاللهم اجعل كل حسنة لى
لك ، وكل سيئة عليك على .
فابتسمت رشا وقالت :

— جزاك الله خيراً . فوالله ما يقوم الوالد لولده
بما قمت به لنا .

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :
— كل مملوك لي حر وكل امرأة لي طالق إن كان
وهب لك شيئاً أو حمل عنك وزراً . فهو ما له حسنة
يهبها لك ، ولا عليك سيئة يحملها عنك . فلائى شيء
تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان . . . وأمسك بنان بيدها
فلثمها وقال :

— بحقى عندك ...

— ماذا ؟

— تريدن فى السماع .

فنظرت إليه وقالت :

— وأنت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكا :

— علم لا أحمدده .

فقالت :

— فعلى م إذن أنفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟

فتدخل أشعب قائلاً :

— منعه من معرفته أن له صوتاً أقبح من وجهي !

فنظرت القينة إلى بنان وقالت باسمه :

— لن أردك مع ذلك خائباً . أزيدك في السماع !

وانطلقت تغنى :

أنا التي لم ير مثلى بشر

كلامي اللؤلؤ حين ينتشر

أسحر من شئت ولست أسحر

إن سمع الناس كلامي كفروا

فاستخف أشعب الطرب . ولم يدر ما يصنع .

فنهض في الحال ونزع عمامته عن رأسه وألقى بها من

النافذة . فصاح به بنان :

— ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟

فقال أشعب :

— تصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا

الكلام وهذا الغناء على لسانها !

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضاً ورمى بها من

النافذة قائلاً :

— أتسبقنى أنت إلى برّ الشيطان !

وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب

إلى الطريق يأتى بعمامته . وخرج بنان خلفه يفعل مثله .

فما كادا ينفردان حتى همس أشعب فى أذن صاحبه :

— ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هذا والله

لا يليق .

فأخرج بنان من ثيابه منديلاً نفيساً يرضن به

ويحرص عليه ، وقال :

— لا أملك والله غير هذا المنديل .

فاختطفه أشعب من يده قائلاً :

— هو البغية .

فقال بنان :

— خذه لا بارك الله لك فيه !

وجرى أشعب به تواءاً إلى السوق . . .

عاد أشعب مع المساء ، وقد باع المنديل بدينار ،
واشترى لحماً وخبزاً ونبيداً ، ودخل على صاحبيه بنان
والجارية ، فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض
الممطور ، وإذا بنان يقول لها في شبه همس :

أترى الزمان يسرنا بتلاق

ويضم مشتاقاً إلى مشتاق

فتجيبه هي بصوت خفي وترجيع شجي :

ما للزمان يقال فيه وإنما

أنت الزمان فسرنا بتلاق

فوقف أشعب على رأسيهما قائلاً :

— ما شاء الله ! ما شاء الله !

فانتبها مذعورين ، والتفت بنان إلى رفيقه قائلاً :

— ما صنعت ؟

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، وأخبره

بما فعل . فقال له بنان :

— كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه

نظيف بلا ثقل ولا ريحان ولا طيب ؟ إذهب فأكمل

الخير !

فخرج أشعب يكمل الخير وهو يعدو عدواً حتى

لا تطول له غيبة ...

وأقبل أشعب بالنقل والريحان والطيب وهو

يلهث . وكان ظلام الليل قد هبط . فألنى باب الدار

مفتوحاً كعهده به عند خروجه ، فدخل . وإذا هو

لا يرى لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد أتى به أثراً .
فسقط في يده . وبقى متلهفاً حائراً يرجم الظنون ويحيل
الفكر سائر وقته ، حتى مضى من الليل جزء ، ونقد
صبره . فقال في نفسه :

— أفلا أدور في البيت لعل البحث يوقفني على
أثر ؟ .

ونفض يحوس خلال الدار . وإذا هو يقف على
باب سرداب . وإذا صاحباه قد هبطا فيه وأنزلا معهما
جميع ما يحتاجان إليه ، فأكلا وشربا وتنعما . فلما أيقن
أشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :

— ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثاً . فأجابه
آخر الأمر صوت بنان من أعماق السرداب :

وأمسيت في ليلين للشعر والدجا
وشمسين من كأس ووجه حبيب

ثم سكت الصوت . وأراد أشعب أن يستجلب
كلام صاحبيه ، فلم يجيباه ...

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها
طولا وغما . وطلع النهار . فخرج إليه بنان . فما كاد يراه
حتى وثب إليه صائحا :

— أهذا يصيح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه . فقال له بنان :

— يا صفيق الوجه ، منزلى ومنديلى وطعامى
وشرابى ، فما شأنك فى الوسط ؟
فبهت أشعب لحظة . ورأى الجواب مفحما فقال
« متمعكا » :

— حق القيادة والفضول ، والله لا غير !
وظهرت الجارية فى تلك اللحظة . فولى بنان
وجهه إليها وقال لها :

— بحياتى إلا أعطيتيه حق قيادته وفضوله .

فقالت باسمه :

— أما حق قيادته فعرك أذنه . وأما حق فضوله

فصفع قفاه .

فنظر أشعب إليها فاغراً فاه . واستقبله بنان على

الفور فعرك أذنه وصفعه . فالتفت أشعب قائلاً :

— ما هذا ؟

فأجاب بنان :

— الحكم .

فوضع أشعب يده على مكان الصفعة ونظر إلى

بنان شزراً :

— الحكم ؟ !

فقال بنان باسمًا :

— نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من

العذل والاستحقاق !

الفصل الخامس

مرت أيام ضاقت فيها الدنيا بأشعب حتى نسي
شكل الخبز وطعم اللحم . فخرج من الجوع يهيم في
الأسواق . فلم يظفر بشيء . ولم يفتح الله عليه بمنظر
أكل ولا آكلين . ولم يبلغ أذنيه حتى مجرد ذكر
الطعام ، سوى قول جماعة مروا به في الطريق يتحدثون
في أمر المسيح الدجال . فقال أحدهم :

— إن الدجال رجل يخرج في سنة قحط معه «جرادق»

أصبهاني ، وملح «دراني» و «أنجذان» سرخسي !

فتملظ أشعب وصاح فيهم :

— هذا عافاكم الله رجل يستحق أن يستمع له

ويطاع !

ثم سار في طريقه على غير هدى ، حتى قاده قدماه

إلى بيت صديقه بنان ، فوقف تحت نافذته وأنشد :

أنا في حال تعالي

الله ربي أي حال

ليس لي شيء إذا قيل

لمن ذا قلت ذا لي

ولقد أفلست حتى

محت الشمس خيالي

ولقد أفلست حتى

حل أكل ليالي

فأطل عليه بنان من النافذة وقال له :

— ادخل !

فدخل أشعب مسرعا يقول :

— حفظك الله وأبقاك !

وجعل يتنسم رائحة قنار أو طعام في البيت فبادره

بنان بقوله :

— إني لم أدعك من أجل ذلك ! فأنا حالي كحالك
إنما قد خطر لي خاطر لعل فيه النجاة لي ولك .
— ما هو أصلحك الله !

— ما قولك لو رحلنا معا اليوم إلى مكة فقد نجد فيها
رزقًا . وقديماً قالوا في السفر سبع فوائد ، ونحن والله
لا نبغى غير فائدة واحدة هي : الطعام ومعاشرة الكرام .
— وكيف لنا بالسفر ؟

— اليوم ترحل قافلة إلى مكة ، لي فيها من يحملني
ويحملك بغير نفقة . . . فهل بنا !

مضى أشعب وبنان من ساعتها إلى القافلة . وكان
اليوم يوم جمعة . فبينما هما في الطريق مرا بمسجد قد
ازدحمت فيه الناس تصلي الجمعة . فتمهل أشعب وحدثته
نفسه بالصلاة . فأخبر زميله ، فأنهه ، وأثناه عن رغبته
فأصر أشعب قائلاً :

— أريد أن أستعين بركات الصلاة على وعشاء
الفلاة .

— إذهب أنت وحدك . ولئن فاتتك القافلة فليس
علىّ لوم .

— إنما هي ركعة أستودع بها المدينة .
ومشى بنان في طريقه . وعرج أشعب على المسجد
ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاماً .
فلم يستطع أن يقوم وحده . فجذب ثوب شيخ أمامه في
الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب
الفرج تقدم فقام في موضع الشيخ وترك الشيخ قائماً خلفه
ينظر في قفاه ويدعو الله عليه . وكان الإمام من سوء الطالع
رجلاً مبطاءً ثقیلاً الحركات ، فجعل يقرأ فاتحة الكتاب
بقراءة « حمزة » مدة وهمزة ، ثم انحنى للركوع بنوع
من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل ، ثم رفع رأسه
ويده وقال : « سمع الله لمن حمد » وقام حتى ما شك

أشعب أنه قد نام ، وحل بأشعب الغم وأيقن بفوت القافلة ،
وضرب الأمام يميناه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ،
وأشعب يتقل على نار الصبر ويتقلب على جمر الغيظ ،
وليس له إلا السكوت والإذعان ، أو الكلام والقبر لما
يعلم من خشونة القوم في ذلك المقام لو انه قطع الصلاة
قبل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل
والرحيل . ثم راجعه الأمل فرفع رأسه ينتهز فرصة فلم
ير بين الصفوف فرجة . فعاد إلى السجود يأسا ، حتى
كبر الإمام للعود وقام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة
وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، وكاد يستنزف
أرواح القوم . فلما فرغ من ركعتيه وأقبل على التشهد
ومال إلى التحية ، وقال أشعب في نفسه « لقد سهل الله المخرج
وقرب الفرج » إذا رجل قد قام من بين الناس صائحا :
— أيها الناس من كان منكم يحب النبي والصحابة

فليعرفني سمعه ساعة !

فلم ير أشعب مناصاً من أن يلزم مكانه كما فعل جميع
الناس .

وصاح الرجل :

— أيها الناس ! خليك بي أن لا أقول غير الحق
ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ،
لكني لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل
نذل يجحد نبوءته .

فربط هذا القول أشعب بالقيود وشده بالحبال ؛
فلو تحرك بعدئذ وقام من بين الناس لكان هو ذلك
النذل الجاحد في نظر الجميع ، ومضى الرجل يقول :
— رأيته في المنام صلى الله عليه وسلم كالشمس تحت
الغمام والبدر ليل التمام ؛ يسير والنجوم تتبعه ويسحب
الذيل والملائكة ترفعه ، ولقد علمني دعاءً أوصاني أن
أعلمه أمته ، فكتبته على هذه الأوراق بمسك وزعفران
فمن دفع لي ثمن القرطاس أعطيته .

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته . ورأى
أشعب ذلك فتمعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه .
وجعل يتأمل فصاحته في وقاحته ، وربطه الناس بهذه
الحيلة البارة ، وأخذ الممال الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !
وخرج أشعب من المسجد وهو يفكر في الأمر
ويقول في نفسه : « ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل
هذه الحيل ؟ بدلا من انتظار الولاة والأعراس » ، وسار
في طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه .
فعاد خائبا في غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف
يجد غداءه . وإذا هو برجل من ريف المدينة يسوق
حماره وعلى وجهه أمارات السذاجة ؛ فقال في نفسه :

— ظفرنا والله بصيد سمين .

وأقبل على الريفي صائحا :

— حياك الله يا أبازيد ! من أين أقبلت ؟ وأين نزلت

ومتى وافيت ؟ هلم إلى بيتي !

فوقف الرجل دهشاً يقول :

— لست بأبي زيد ، ولكنى أبو عبيد .

فقال أشعب فى صوت المستدرک :

— نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان ، أنسانيك

والله طول العهد ، كيف حال أيبك ؟

فقال الرجل :

— لقد نبت الربيع على قبره .

فصاح أشعب :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة

إلا بالله العلى العظيم !

ومد يده إلى صدره يريد أن يعزق قميصه من

الجزع ، فقبض الريفى على يده قائلاً :

— نشدتك الله لا تمزقه !

فأظهر أشعب التجلد والطاعة ، وأبقى على ثوبه ثم

جذب يد الريفى قائلاً :

— هلم إلى بيتي كي نتغدى ، أو إلى السوق لنشتري
شواء ، نعم ... السوق أقرب وطعامه أشهى .
ومشى به إلى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه
شهية إلى الأنوف فتحرك أفواه البطون ؛ وقال أشعب
لصاحب الحانوت :

— إفرز لأبى زيد من هذا الشواء !

ونظر إلى صواني معروضة وقال :

— ثم زن له من تلك الحلوى ، واختر له من تلك
الأطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ورش عليها شيئاً
من السكر وماء الورد ليأكله أبو زيد هنيئاً !

فأنحنى الشواء بساطوره على ذلك اللحم الطرى .
وقطع وقدم إلى أشعب والرفي . فجلسا وأكلا حتى
استوفيا . فقال أشعب لصاحب الحلوى :

— زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجري
في الحلق ؛ وليكن رقيق القشر كشف الحشو لؤلؤى

الدهن ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبوزيد هنيئاً .
فوزن صاحب الحلوى لهما . وقعد الرجلان وشمرا
حتى استوفياه . فقال أشعب للريفي :

— يا أبازيد ، ما أحوجنا إلى ماء مشعشع بالثلج
يبرد جوفنا بعد هذه الأكلة النظيفة !

فقال الريفي :

— صدقت .

فقام أشعب وهو يقول له :

— إجلس يا أبازيد ولا تبرح حتى نأتيك بسقاء !
وخرج أشعب فائزاً بالسلامة ومعدة مملوءة .

ومضى النهار ، وعلم الريفي من إبطاء أشعب أنه لن
يعود ونقد صبره من طول الانتظار ، فقام إلى حماره ،
فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بشوبه وقال له :

— أين ثمن ما أكلت ؟

فقال الريفى :

— لقد أكلته ضيفاً .

فلكمه صاحب الخانوت لكمة ، وثنى عليها بلطمة

وقال له :

— ضيفاً ؟ متى كنا دعوناك ؟ هاك نخذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

— زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفى يصرخ ويلعن ويصيح :

— لعن الله ذلك الشيخ المحتال ، لقد قلت له أنا

أبو عبيد ، فيقول لى أنت أبو زيد !

الفصل السادس

مرت الأيام وأشعب لا يسمع خبراً عن بنان .
ولا يجد سبيلاً إلى لقمة . فقد عرفته الناس في المدينة
فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة . ولم تعد تقع عينه على
خوان ولا على قوم أمام طعام . كأنما الناس من لؤمهم
قد أصبحوا يأكلون في بطون الأرض أو أجواز السماء
ومشى أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئاً ولا يفكر
في شيء . فدهم في جانب من جوانب الطريق جماعة
يتغدون وهم غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

— سلام عليكم معشر اللئام !

فرفعوا أبصارهم إليه قائلين :

— لا والله بل كرام !

فتنى رجله في الحال وجلس بينهم وهو يقول :

— اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلني من
الكاذبين !

ثم مديده في القصعة التي بين أيديهم وهو يقول :
— ماذا تأكلون ؟

فأرادوا أن يوقفوا تهجمه ، فقالوا في فتور :
— نأكل سُماً !

فحشاه وازدرد وهو يقول :
— الحياة بعدكم حرام !

وجعل يجول في القصعة كما يجول الفارس في الميدان .
فلما رآوه قد أغار على أكلمهم ، وكاد يحرمهم زادهم في غير
حشمة ولا حياء . نظر بعضهم إلى بعض ثم التفتوا
إليه قائلين :

— أيها الرجل ! هل عرفت منا أحداً ؟
فأشار أشعب بأصبعه إلى الطعام وقال :
— عرفت هذا .

فسكتوا عنه ، وقد استظرفوه ، وتبادلوا الحديث ،
فعرف منهم أشعب ، أنهم من أهل مكة . وقد جاءوا
في القافلة الأخيرة ، وقال أحدهم أن معه رقعة من رجل
اسمه بنان في مكة لرجل اسمه أشعب في المدينة ، فاهتز
أشعب سرورا وكشف لهم عن حقيقته . وتسلم الرقعة .
وقرأها فعلم منها أن صاحبه قد استقر في أحسن حال .
وقد بارحته أيام العسر والضيق . وله حرفة شريفة يدر
منها المال ، وهو يسأله أن يأتي إليه مع أول قافلة مهيئة
للرحيل ، كي يعاونه في ذلك العمل ويشاركه في ذلك
الكسب الحلال ...

قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة إلى
مكة . ولم يكن معه مال ولا أحمال ، ولم يدر كيف غاب
عن فطنة بنان ، وقد أصبح حسن الحال كما قال ، أن يرسل
إليه مع الرقعة بما يقيم أوده حتى الوصول . لعله خشى

أن يأخذ أشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل .
ولم يعدم مثل أشعب الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على
قدميه يغنيهم ويضحكهم . وقد كان سيره أول الأمر إلى
جانب ناقة عليها شيخ وشاب . فلحظ أن الشاب كثير
البكاء . فاستعلم . فأخبروه أنه عاشق لابنة عمه وقد فرقت
بينهما الأحداث . وأن الشاب اشترك مع ذلك الشيخ
في السفر والمؤونة وكانا على ضيقة وعسر . فجعلا لهما في
كل يوم قرصا من الخبز . وكان الشيخ متخلع الأضراس
بطيء الأكل ، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد
يشتكي العشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم ذلك
الشاب جعفرا . فجعل أشعب يغني فيهما قائلا :

لقد راينى من جعفر أن جعفرا
يطيش بقرص الشيخ في آخر الليل
فقلت له لو مسك الحب لم تبت
سمينا وأنساك الهوى شدة الأكل

فضحكت القافلة وأنست إلى أشعب . وحمله معه
رجل من التجار يسافر وحده على جمل ، فلبث أشعب .
معه طول الطريق . ينزلان ويقومان . والرجل في كل
يوم يحضر الطعام ويجهزه وأشعب لا يصنع شيئاً .
فقال له الرجل ذات يوم :

— قم اليوم فاطبخ .

فقال أشعب :

— لا أحسن ذلك .

فطبخ الرجل . ثم قال لأشعب :

— قم فأثرد .

فقال أشعب :

— والله كسلان .

فأثرد الرجل . ثم قال لأشعب :

— قم فاغرف .

فقال أشعب :

— أخشى أن ينقلب على ثيابي .

فغرف الرجل . ثم قال لأشعب :

— قم الآن فكل .

فنهض أشعب مسرعا قائلا :

— قد والله استحييت من كثرة خلافي عليك !

وتقدم إلى الأكل فقام فيه مقام رجلين ...

وصل أشعب إلى مكة وسأل عن بنان ، ف قيل له إنه
كان قد استأجر دارا في مكة يجمع فيها بين الرجال
والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب . فشكا الناس إلى
والى مكة فنفاه إلى عرفات ... فمشى أشعب من ساعته
إلى عرفات ، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى أمام
المنزل قطيعا من الحمير مرتبطة . فما رآه بنان داخلا عليه
حتى فتح له ذراعيه وتعانقا ، وأخبره بما هو فيه من الرخاء
واستواء الحال . وأنه لا ينقصه لتمام سرور من يجيئون

غير الغناء والطرب ، وهذا لا يقوم به أحد مثل أشعب ،
ولهذا أرسل إليه . فتأمل أشعب المكان وقال لصديقه :
— أهذا هو العمل الشريف والكسب الحلال !

فانتهره بنان وقال له :

— أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا إلى
موائد الغير وشرابهم . إنما ندعو الآن الناس إلى شرابنا
نحن وموائدنا وغنائنا . فماذا في ذلك ؟
فقال له أشعب :

— أما نفاك وإلى مكة ؟ فكيف يجيئك الناس هاهنا ؟
فأجاب بنان باسمًا :

— الأمر هين . فقد أرسلت إلى الناس أقول
« ما يمنعكم من أن تعاودوا ما كنتم فيه ؟ فقالوا وأين بك
وأنت في عرفات » فقلت لهم : « حمار بدرهم وقد صرتم
على الأثر فضلا عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا يفعلون ،
وتلك حميرهم بالباب !

استطاب أشعب تلك الحياة الجديدة . فقد عرفت
يده ثقل الدراهم ، وبطنه الشبع ، وظهره الكساء ، وأصبح
الشراب من لزوم عمله . لا يفيق منه إلا إليه . وهو
بعد شريك بنان في كل ما ملك حتى في ذلك الخادم
الذى يقوم بخدمتهما .

ولم يدر أشعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ أن يركب
حماراً بالكراء يحمله في غدواته وروحاته من مكة إلى
عرفات ، ومن عرفات إلى مكة . فذهب إلى نخاس
بسوق الدواب فقال له :

— أطلب ماشئت من الثمن ، واعطني حماراً يليق بي

وأليق به !

فقال النخاس وهو ينظر إلى بذخ أشعب :

— تبغى حماراً عظيم الهيئة سريع الخطوة ...

فقال أشعب :

— أبغى حماراً ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير
المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام
ترفق ، إن أقللت علفه صبر ، وإن أكرثته شكر ، وإذا
ركبته هام ، وإن ركبته غيرى نام .

فنظر إليه النخاس محملاً مشدوها ثم قال له :
— يا عبد الله ، اصبر ، فإن مسح الله قاضي مكة
حماراً أصبت حاجتك إن شاء الله !

ثم أراه بعد ذلك حماراً حسن المنظر أنيق المظهر
ليس به من الخصال ما طلب أشعب ، ولكن فيه من
الأمارات ما يغري ، فركبه أشعب من ساعته وأتقد الرجل
الثلث . ومشى به يتبخطر ، مشية لم يعرفها من قبل لا على
قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به إلى عرفات . فلم يخلطه مع
الحمير الواقفة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيماً لشأنه . فربطه
وحده تحت نافذة بنان . ودخل فألقى مجلس الشراب
قائماً ، والرجال والنساء مختلطين . وبنان ليأسه من غيبة

أشعب في السوق ، ولما صور له السكر من الوهم والخيلاء
قد حل محل أشعب في الغناء . وإذا القوم يضحجون ،
يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت ، وما كادوا
يرون أشعب داخلا حتى هللوا فرحين ، وأقبل عليه
الرجال وأقبلت النساء . وارتفعت الأصوات تقول له :
— أسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، وأقبل الناس على
بنان يقولون له :

— لقد حضر أشعب ؛ فمن أحسن غناء ؟ . أنت
أو أشعب ؟

فقال بنان :

— أنا شيء ، وأشعب شيء ؛ أنا أغني بدرهم ،
وأسكت بدينار ؛ أما أشعب فيغني بدينار ويسكت
بدرهم ، فسكوتي إذن أغلى من سكوت أشعب ! فوالله
ما أسكت حتى تدفعوا الثمن !

فصاح الناس :

- ندفع والله !

وصاحت النساء تطلب إلى أشعب أن يغنى فقال لهم :

- بضمنه كما قضى زميلي .

فقلن :

- ندفع والله !

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال

أشعب :

- هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغنى بصوته الحسن ويشير

إلى بنان :

ومغن إن تغنى أورت الندمان همّا

أحسن الأقوام حالا فيه من كان أصما

فضحك المجلس وطرب وانهاالت على أشعب آيات

الحمد والإعجاب ...

مرت الأيام وشاعت في مكة أخبار ذلك المنزل في
عرفات . وأعاد أهل مكة الشكاية إلى الوالى أن هذين
القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ، حتى فسدت أحداث
مكة . فأرسل الوالى إلى بنان وأشعب . فأحضروهما وقد
قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام . وقد شرب
ليلتئذ أشعب حتى جعل يقول لمن حضر :

اسقنى صرفاً حمياً

تترك الشيخ صبياً

وتريه الغى رشداً

وتريه الرشداً غياً

ورأى خادمهما الشرطى مقبلين ، فأسرع يخبرهما
وكانا قد أعدا سرداباً يخفيان فيه الناس والحمير إذا وقع
خطب من هذه الخطوب . فبادرا إلى محو أثر ما كانوا
فيه . وكبس الدار رجال الوالى . فلم يجدوا غير أشعب

وبنان . فقادوهما إلى مكة . فذهبا وتركا خادمهما يطلق
الناس والحمير إذا لاحت ساعة الأمن والسلامة .

ودخل الرجال بأشعب على الوالى . فلما رآه قال :

— ليس هذا بننان . من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال :

— خادمك وعبدك !

ولحظ الوالى من حركاته ما جعله يقول لرجاله :

— هذا الرجل شارب .

فقال أشعب :

— لا ... أصلحك الله !

فقال الوالى :

— استنكهوه !

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فيه ثم قالوا :

— إن نكهته لا تبين عليه .

فقال الوالى :

-- قيثوه !

فصاح أشعب :

— وإن لم أقيء شراباً فمن يضمن لى عشائى !!

ولم يكذب يتم عبارته . حتى دخل بقية الرجال بينان .

فما إن رأى الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

— يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى

المشعر الحرام !

فقال بنان :

— يكذبون على أصلح الله الأمير .

فأمر الوالى بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما

إن طلع النهار وجلس الوالى فى مجلسه حتى أمر بأصحاب

الشكاية فأحضروا . فسألهم الدليل فقالوا :

— أصلحك الله ، الدليل على صحة ما نقول أن تأمر

بجميع حمير مكة فترسل بها أمناء إلى عرفات ، فيطلقوها

فإن وقفت كعادتها على منزله دون المنازل ، فنحن غير
كاذبين ولا مبطلين .
فقال الوالى :

— نعم ، إن فى هذا لدليلا وشاهداً عدلا .
وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التى للكراء ،
فأرسلت وأطلقت ، فاذا هى تصير إلى منزل بنان لا تلوى
على شىء ، كأنها به عليمه خبيرة . فلما علم الوالى بذلك قال :
— ما بعد هذا شىء . جردوه !

فأتى الرجال بينان وجردوه عن ثيابه . فلما نظر
إلى السياط ؟ التفث إلى الأمير قائلاً :
— لا بد أصلحك الله من ضربى ؟

فقال :

— نعم ياعدو الله !

فقال بنان :

— والله ما فى ذلك شىء هو أشد على نفسى ، من أن

يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا أهل مكة
يحيزون شهادة الحمير !

فضحك الوالى . وتفكر قليلا ثم قال :

— أتحب أن أخلى سبيلك ؟ على شريطة ..

— وما هى حفظك الله وأبقاك .

— أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد .

ذهب بنان وأشعب توا إلى عرفات ليحملا متاعهما
ويرحلا كما أمر الوالى . فوجدا خادمهما قد سبقهما إلى
النية . فوضع الدراهم وملابس وما خف وغلا فى صرر .
وتهيأ للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضربا مبرحا .
فقال أشعب :

— ما تصنع ؟ لا تضرب العبد كل هذا الضرب
فقد دفعت فيه كما دفعت أنت . وحق فيه كحقتك أنت !
فقال بنان :

— إني أضرب نصيبي منه .

فأشار أشعب إلى الصرر :

— وهذه ؟

فقال بنان :

— كل شيء يقسم بيننا بالعدل .

فقام أشعب إلى الخادم فضربه هو أيضاً قائلاً :

— وأنا أضرب حصتي فيه .

فانفلت منهما العبد وكان جلدًا نشطًا ذكيًا ، ورفع

ثيابه وسلح عليهما وقال :

— اقسم هذه على قدر الحصص !

وولى الأدبار . وبقيا هما مشغولين يومهما يجمع

ما استطاعا جمعه ويبيع ما قدرا على بيعه ، وخرجا من ذلك

النعيم آسفين ...

الفصل السابع

عاد أشعب وبنان إلى المدينة . فدخلها دخول
الظافرين . خلفهما عبدهما الهارب وقد راجعاه وأرضياه
يحمل لهما الصرر والخيرات . وقد تعاهدا على أن يقيما
معاً في منزل واحد لينفقا فيه هذا المال سوياً . وذهب
أشعب إلى داره أول الأمر . فرأى امرأته وعياله وترك
لهم بعض النفقة . وعرج على الكندي يسأل عن خبره
ويضحك من أطواره . ويرى كيف وقع العودة عليه .
فسأل عنه فقيل له إنه خرج فغبر من بكرة الصباح
ليقتضى رجلاً خمسة دراهم فضلت ديناً عليه . وإن هذا
ما يشغله منذ أيام طويلة . فهو يخرج من أجل هذا الدين
من أول النهار فلا يرجع إلا مع آخره لبعد الشقة وكثرة
المطالة . فجلس أشعب ينتظره حتى رجع . فما وقع نظر

الكندى على أشعب ببابه حتى امتقع لونه . فابتدره
أشعب صائحاً :

— لا تخش شيئاً ، بأبى أنت وأمى !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة
فأشرق وجه الكندى . وجعل ينظر إلى ثوب أشعب
النظيف معجباً أول الأمر . غير أنه عاد فhez رأسه وقال
متفخراً :

— لا والله . أين هذا من ذلك القميص !

فلم يفتن أشعب وقال :

— أى قميص !؟

ونجاة تذكر الليلة التى سكر فيها الكندى .
فضحك حتى دمعت عيناه . فأراد أن يسره ويهون عليه
تلك المصيبة التى ما زال يذكرها ، فدعاه إلى طعام
وشراب فى ذلك المنزل الذى جعله هو وبنان لمنادمتها
وتنعمهما . ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليعد

وليمة في ذلك المساء . ورأى أشعب أن شعره قد طال
وبدنه قد اتسخ من طول السفر . فقال للخادم :

— اختر لنا حماماً نظيف البقعة طيب الهواء معتدل
الماء ، وحلاقاً خفيف اليد حديد الموصى قليل الفضول .
فقاده الغلام إلى ما أراد . ودخل أشعب الحمام ، فلم
يرعه إلا رجل قد دخل على أثره وعمد إلى قطعة طين فلطخ
بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج . ودخل آخر فجعل
يدلكه دلكاً يكد العظام ويغمزه غمزاً يهد الأوصال .
ثم عمد إلى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء . وإذا الأول
قد عاد فرأى الثانى منهمكا في العمل فلكمه لكمة كادت
تطير أسنانه وقال له :

— يا لكع ، مالك ولهذا الرأس وهو لى .
فقام إليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت
تضيع صوابه ، وقال له :

— بل هذا الرأس حق وملكى وفى يدي .

وتلا كما حتى تعباً ، وتجاوزاً بالأثواب وساراً يتحاشان
إلى صاحب الحمام . فقال له الأول :
— أنا صاحب هذا الرأس . لأننى لطخت جبينه
ووضعت عليه الطين .

وقال الثانى :

— بل أنا مالكه ، لأننى غسلته ودلكت صاحبه .
فقال الحملى :

— ائتونى بالزبون أسأله لأيكما هذا الرأس ؟

فذهب الرجلان إلى أشعب وقالاه :

— لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب ما زال موضوعاً فى مكانه وضعاً لم
يفهم مما حدث أمامه شيئاً ولا أدرك لهذا الشجار معنى
فنهض وسار معهما إلى صاحب الحمام . فابتدره الحملى
قائلاً :

— يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير

الحق ، قل لى : هذا الرأس لأيهما ؟

فوقف أشعب دهشاً مشدوهاً لحظة ثم قال :
— يا عافاك الله ، هذا رأسى أنا ؛ قد صحبني طول
الطريق من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى عرفات
وما شككت أنه لى .

فقال له الجماي منتهراً :

— أسكت يا فضولى !

ثم مال إلى أحد الخصمين وقال له :

— يا هذا . إلى متى هذه المنافسة بينكما على رأس
صغير الشأن قليل الخطر !

ثم عرج على الخصم الآخر وقال مهوناً عليه :

— وأنت يا هذا ! هب أنك لم تر رأس هذا

التيس !

فقام أشعب من ذلك المكان خجلاً . وارتدى

ثيابه على عجل وانسل من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر
بالباب يقول له :

— نعيما إن شاء الله !

فهوى فى الحال بكفه على قفا الخادم :

— أنعم الله عليك بهذا !

أصرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام أن يأتيه
بخلق ، وأن يحذر هذه المرة ؛ فلا يحضره فضوليا
ولا ثاراً . فحسبه ما ذهب من الوقت فى غير شىء ،
سوى ما رآه من شجار وما لحقه من سباب !

فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم ، وما هو إلا
أن دارت يده على وجه أشعب حتى قال له :

— جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن أنت ؟

فقال أشعب :

— اسمى أشعب

فقال الخلاق :

— بأبي أنت وأمي ، هذا اسم لا يجهله أحد في
المدينة ! ومن أين قدمت ؟ فأني أرى أثر السفر عليك ؟

فقال أشعب :

— من مكة .

فقال الخلاق :

— حياك الله ، من أرض النعمة والرفاهة ، وبلد
رسول الله الكريم . لقد حضرت في شهر رمضان
جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح وأقيمت التراويح ...
وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى وأشعب
يصبر نفسه . وفرغ الخلاق من القصة فعاد يسأل :

— وأى شيء أقدمك ؟ أصلحك الله !

فأجاب أشعب :

— أقدمني الزمن وتقلباته ، واسكن إذا فرغت
سأخبرك بالأمر على وجهها .

فقال :

— وتعرفني بالمنازل والسكك التي جئت عليها .

فقال أشعب :

— نعم .

وكان الخادم واقفاً على مقربة منهما . فنظر إليه أشعب

نظرة قاسية . فدنا منه الغلام وهمس في أذنه معذراً :

— لن أجد حلاقاً يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس إلى الغروب . ولم يفرغ الحلاق

من الكلام ، ولم يفرغ مما جاء له ، وأخيراً قال :

— لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد

حلقت رأسك . فهل ترى أن نبتدىء ؟

فأسرع أشعب قائلاً :

— وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونفض فوئب بعيداً . وما إن استوثق أنه أفلت

من يد الحلاق ومواسيه ، حتى صاح في الخادم :

— علق هذا الحلاق من العقبين .

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر .
فقال له أشعب :

— جعلت فداك ، سألتني عن المنازل والسكك
التي قدمت عليها ، وأنا مشغول في ذلك الوقت ، وظننت
أنك مشغول بعملك ، فأنا أقصها عليك الآن ، فاستمع :
خرجنا من مكة في المساء فنزلنا بئر اذات نخيل في ظهيرة
الغد . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال أشعب :

— وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب
عند طلوع النهار . يا غلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقال أشعب :

— ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا إلى نجع وقد أشرفنا
على الأصيل . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال أشعب :

— وبعدئذ ركبنا وسرنا حتى وجدنا ...

فصاح الحلاق مقاطعاً :

— يا سيدي ، سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ ؟

فقال أشعب :

— إلى المدينة .

فصاح الحلاق :

— لست تبلغها حتى تقتلني .

فقال أشعب :

— أتركك على أن لا تعود ؟

فصاح الحلاق :

— والله لا أعود أبداً .

فتركه . وكان المساء قد أقبل . وحضر بنان

والكندي . وأبصر الخادم يحل وثاق الحلاق . فسألا

فأخبرهما أشعب الخبر . فقال الكندي :

— وددت أنك بلغت به إلى أن تأتي على نفسه !

جلس الجميع يتحادثون ساعة قبل أن يوضع بينهم
الخوان ويقدم الشراب . وحلف أشعب على الحلاق
أن لا يبرح حتى يحضر معهم العشاء . فقد كفاه من
التأديب ما أكله من يد العبد . وأخذ الكندي يجول
بنظره في أنحاء المكان ويعجب بالرياش . ولحه بنان
فقال له باسمًا :

— أراك شديد العجب !

فقال الكندي :

— إِي والله نعم .

ثم أردف سائلًا :

— ومتى كان الرحيل ؟ قبل أن أهدي أشعب

القميص بكم يوم ؟

فلم يفتن بنان وقال :

— أي قميص ؟

فابتسم أشعب وتذكر عندئذ أمراً كان يود أن
يسأل الكندي فيه . فأقبل عليه يقول له :

— بالله إلا أخبرتنا : إنا نراك لأول مرة تصنع شيئاً
الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا
عن مضيك كل يوم إلى رجل في آخر السوق لتقتضي
منه خمسة دراهم دينا عليه . . أهو حزم منك ؟ لا . إنما
الحزم أن يتشدد الإنسان في غير تضييع .

فالتفت الكندي إليه قائلاً :

— وما هو وجه التضييع ؟

فقال أشعب :

— وجوه التضييع كثيرة . فواحدة : إنا لا نأمن
عليك انتقاض بدنك وقد خلا ما خلا من سنك ، وأن
تعتل ، فتدع التقاضى الكثير بسبب هذا القليل أو
تتشاغل بالبعيد عن القريب ، وثانية : إنك أن تبهد هذا
الجهد فلا بد لك من أن ترداد في العشاء إن كنت ممن

يتعشى أو تتعشى إن كنت ممن لا يتعشى . وهذا إذا
اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم . وبعد فإنك تحتاج
أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك
فمن ههنا نتره ومن ههنا جذبة ، فإذا الثوب قد أودى ،
ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك
تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر في نعلك فتقدها قدأ ،
ولعلك تهرتها هرتا من كثرة الذهاب والإياب في سبيل
هذا الدين الزهيد . منذمتي وأنت تذهب للمطالبة
والاقتضاء؟

فقال الكندي :

— منذ يومين من تاريخ الليلة التي أهديت فيها
لك القميص .

فأخفى أشعب ابتسامه ومضى يقول :

— مضى إذن وقت طويل وأنت على هذه المشقة

تتكبد كل ما ذكرنا لك من الخسائر ، ولا تجنى إذا

جنيت إلا خمسة دراهم . ولما كنا نثق دائماً بحكمتك في كل تصرفاتك . فقد أعيتنا والله هذه المشكلة . وأحببنا أن نسألك فيها .

فتنحجج الكندي وقال :

— أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإن الذي أخاف على بدني منه هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم أصبح أبدانا من الجمالين والطوافين . ولربما أقمت في المنزل بعض الأمر فأكثر الصعود والنزول خوفاً من قلة الحركة ، وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة في الطعام فقد أيقنت نفسي وأطمأن قلبي على أنه ليس لنفسى عندى إلا مالها ، وإنها إن حاسبتني أيام التعب حاسبتها أيام الراحة . وأما ما ذكرتم من تلقى الجمولة ومن مزاحمة أهل السوق ومن النتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم ، ثم يكون

رجوعى على ظهر السوق ، وأما ما ذكرتم من شأن
النعل والسراويل فانى من لدن خروجى من منزلى إلى
أن اقترب من باب صاحبي فانما نعلي في يدي وسراويلي
في كمي ، فإذا صرت إليه لبستهما ، فإذا خرجت من
عنده خلعتهما ، فهما في ذلك اليوم أودع أبدانا وأحسن
حالا . بقى الآن لكم مما ذكرتم شيء؟؟
فقال أشعب والجميع متعجبين :
— لا .

فأردف الكندى باسمًا .

— ههنا واحدة تنى بجميع ما ذكرتم .
فقالوا جميعاً في لهفة :
— ما هي ؟

فقال الكندى :

— إذا علم المدين القريب ومن لى عليه ألوف
الدنانير شدة مطالبتي للمدين البعيد ومن ليس لى عليه

إلا الدراهم، أتى بحق كاملاً ولم يطمع نفسه في مالى . فهذا
تدبير يجمع لى إلى رجوع مالى طول راحة بدنى وليس
من الحكمة أن أدع شيئاً من دين يطمع فى فضلة ما يبقى
على الغرماء .

وسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة إعجاب :

— لا والله لا سألناك عن مشكلة أبداً .

وجاء وقت الطعام . ووضع الغلام الخوان ، وقدم
« مضيرة » من لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل
والأبزار ، تثنى على كرم أشعب وبنان وتشهد لهما
بالسعة والرخاء ، فى قصعة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء
ورواء ، فما أخذت من المائدة مكانها ، حتى قام الحلاق
على قدميه ساخطاً لعنا ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه
الحاضرون يمزح ، فإذا هو جاد فى الكلام وإذا هو
يتنحى بعيداً تنحى السليم عن الأجرب ، فراهم أمرها
وخافوا أن يمدوا إليها يداً ، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم

وسافرت خلفها عيونهم . وتحلب لها فم الكندي وتلمظت
لها شفتاه ، ولكنه أذن على مضض ، وأقبل كما أقبل
الآخرون على الحلاق يسألونه عن أمرها فتهد وقال :

— قصتي معها أطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

— تكلم !

فتردد ثم قال :

— أخاف لو حدثتكم بها أن لا آمن من غضبكم
وإضاعة وقتكم .

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعاً :

— تحدث .

فجاس وأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال :

— منذ سنوات ثلاث دعانى حلاق من إخوانى
الحلاقين ، ترك الحرفة بعد أن أثرى وجمع الأموال ،
إلى أكلة « مضيرة » ولزمنى ملازمة الظل إلى أن تركت

حانوتي وزبائني وأجبتني إليها ، وقنا . فجعل طول الطريق
يثنى على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها في صناعة
المضيرة وتأنيقها في طبخها ، ويقول :

— يا صاحبي لو رأيتها والخرقة في وسطها وهي
تدور في المطبخ بين القدور تنفث بفمها النار وتدق
بيديها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه
الجميل ؛ لرأيت منظرًا تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها
تعشقتني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليته ،
ولاسيما إذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي لَحًا .
مدينتها مدينتي وأرومتها أرومتي . لكنها أوسع مني
صدرًا ، وأحسن خلقًا .

ومضى يحدثني بصفات زوجته حتى انتهينا إلى
الجهة التي يقيم فيها . فقال :

— يا صاحبي ترى هذه الجهة هي أشرف موقع
بالمدينة ، يتنافس الأخيار في نزولها ولا يقطنها غير

كل عظيم وإنما المرء بالجار . ودارى فى وسطها كالنقطة
فى الدائرة ، انظر إلى دارى وقل لى كم تقدر ثمنها .
قله تخميننا .

قلت :

— الكثير .

فقال :

— يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهّد ثم قال :

— سبحان من يعلم الأشياء !

وانتهينا إلى باب داره فقال :

— كم تقدر يا صاحبي أنفقت على هذا الباب ؟

أنفقت والله عليه فوق الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله
أرأيت بالله نظيره ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيه ، وتأمل
حسن تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه الحلقة فيه
لقد اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى

بثلاثة دنائير . وكم فيها من النحاس يا صاحبي ! فيها ستة
أرطال ! بالله دورها ثم انقرها وأبصرها .

وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

— عمرك الله يادار ولا خربك ياجدار . تأمل بالله

المعارض ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلمني كيف
حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لي
جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه الدار ، وله من المال
ما لا يسعه الخزن . فمات رحمه الله وخلف خلفاً أتلف
المال بين الحمر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما
ذهب . ويفوتني شراؤها فأقطع عليها حشرات إلى يوم
المات ، فاحتلت حتى أقرضت صاحب الدار مالاً احتاج
إليه ، وتغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق
فسألته أن يجعل داره رهينة لدي ، ففعل . ثم صبرت عليه
إلى أن أفلس وآلت إلى الدار بضمن بخس . وأنا بحمد الله
محظوظ . وحسبك يا صاحبي أني كنت منذ ليال نائماً

في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب . فقلت من الطارق . فاذا امرأة معها عقد لؤلؤ تعرضه للبيع فأخذته منها إخذة خلس واشتريته بثمان زهيد وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة حظي . والسعادة تنبسط الماء من الحجارة . الله أكبر ، لا ينبئك أصدق من نفسك . ثم إنني اشتريت هذا الحصار في المنادات وقد أخرج من دور آل ثراء ، وكنت أطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصري ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن في حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه . فالؤمن ناصح لإخوانه . ونعود إلى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهر . يا غلام الطست والماء .

فقلت :

— الله أكبر ربما قرب الفرج .

وتقدم خادمه . فقال :

— ترى هذا الغلام . إنه رومي الأصل ، عراقي

النشء ، تقدم يا غلام ، واحسر عن رأسك ، وانض عن
ذراعك وأقبل وأدبر .

ففعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

— بالله سلني من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو معن من

النحاس . يا غلام ضع الطست وهات الأبريق .

فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه

وأدار فيه النظر ثم نقره وقال :

— انظر إلى هذا النحاس الأصفر كأنه قطعة من

الذهب ، نحاس الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه

وسلني متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام المجاعة . يا غلام

الأبريق !

فقدمه . وأخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

— أنبوه منه ، لا يصلح هذا الأبريق إلا لهذا
الطست . يا غلام ، أرسل الماء ، فقد حان وقت الطعام !
بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، أزرق كعين السنور .
وكأنه لسان الشمعة في صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلقى
عن قصته . فهو نسج جرجان ، وقع إلى فاشتريته .
فاتخذت امرأتى بعضه سراويلًا واتخذت بعضه منديلا .
دخل في سراويلها عشرون ذراعا . وانتزعت انتزاعا من
يدها هذا القدر وأسلمته إلى المطرز حتى صنعه كما تراه
وطرزه . فادخرته للظراف من الأضياف أمثالك .
يا غلام ، الخوان والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام .
فأتى العبد بالخوان وقلبه صاحب البيت ونقره
وعجمه بأسنانه وقال :

— عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هذا
الخوان وانظر إلى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله
فقلت له :

— هذا الشكل فتى الأكل .

فقال :

— الآن ، عجل يا غلام بالأكل ، لكن الخوان

قوائمه منه . . .

فقنطت وقلت في نفسي :

— قد بقي الخبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين

اشتراها وكيف اكرتري لها حمالا وفي أى رحى طحن

وكيف عجن وخبز ، وبقي الحطب ومتى جلب وكيف

صفف وجفف . وبقي الخباز ووصفه والدقيق والخمير

وشرحه ، وبقي البقل وكيف قطف ونظف ، وبقيت

المضيرة كيف اشترى لحمها ووفى شحمها ونصب قدرها

ودقت أنزارها حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا

خطب يطم . فقمتم .

فقال :

— أين تريد يا صاحبي ؟

فقلت :

— حاجة أقضيها .

فقال :

— تريد كنيفاً أحسن من مصيف الأمير ويزرى
بمقصورة الوزير ، قد سطح سقفه وفرشت أرضه
بالمرمر ، يمشى على أرضه الذباب فيزلق ، وعليه باب من
ساج وعاج ، مزدوجين أجمل ازدواج ، يتمنى الضيف
ان يأكل فيه .

فقلت له :

— كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف
في الحسبان . وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو
يتبعني ويصيح بي :

— يا أبا الفرج ... المضيرة ! .

وظن الصبيان في الطريق أن المضيرة لقب لى ،
فصاحوا صياحه فضجرت ورميت أحدهم بحجر ،

فأصاب الحجر عمامة رجل عابر وغاص في هامته .
فأخذت من صفع الناس بما طاب وخبث . وضربت
والله حتى نسيت اسمي . ثم حشرت إلى الحبس فأقمت
عامين في ذلك النحس . وخرجت فنذرت أن
لا آكل مضيرة طول حياتي . فهل أنا في ذايا أسيادي
وإخواني ظالم ؟! » .

...

وسكت الحلاق . ونظر إلى الجالسين يمنة ويسرة
فوجدهم ينفخون ويتماظنون لا من الجوع . بل من
الغيظ . ولم يجدوا كلاما يقولونه له ...

ولم ير أشعب جواباً يجيب به غير الإشارة إلى
العبد والصياح فيه قائلاً :

— علق هذا الحلاق من العقبين ، إلى أن نفرغ

من العشاء !

وأرجعوا « المضيرة » ، فعادت إليهم باردة منكشة
كالعجوز الحيزبون . فأكلوها وقد ذهب روائها
ومضت لذتها فجعل الكندي يمضغ ويقول لأشعب :
— ألم أقل لك وددت أنك بلغت بهذا الحلاق إلى
أن تأتي على نفسه !

الفصل الثامن

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أياماً ينفقان مما
عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، إلى أن أوشك
ما جمعه أن ينضب ، ولما شبح الفاقة والجوع يقترب ،
فحدثهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعاه في عرفات .
ولكن على نسق آخر ، خوفاً من سوء العاقبة . فبعث
أشعب إلى الجارية « رشا » فحضرت . وأعد هو وبنان
منزلاً في زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا
الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد إذا اجتمع
الناس لصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود ،
تزهى من تحتها عيناها كأنهما النجوم . فأكادت تسير
خطواته حتى سمعت خلفها من يهمس في أذنها :

قل للمليحة في الخمار الأسود

ماذا فعلت بزاهد متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه
حتى خطرت له يباب المسجد
ردى عليه صلاته وصيامه
لا تقتليه بحق دين محمد
فالتفت ، فرأت رجلا ليس من أهل البلد نظيف
الهيئة ، وقور الطلعة يحد إليها النظر . فقالت له :
— اتبعنى .
فقال لها :
— إن شريطتى الحلال .
فقالت له :
— قبحك الله ، ومن يريدك على حرام .
فجبل الرجل . وغلبته نفسه على رأيه ، فتبعها .
ومشيا حتى دخلا الزقاق وبلغا المنزل . وصعدت الجارية
درجة وقالت للرجل :
— إصعد .

فصعد . فقالت له :

— إن لي وجهاً أحسن من العافية ، مع صوت
كصوت « ابن سريج » وترنم « معبد » وتيه « ابن
عائشة » ، أجمع لك هذا كله في بدن واحد بأشقر سليم .
فقال لها :

— وما أشقر سليم ؟

فقالت :

— بدينار واحد ، يومك وليلتك . فإذا أقت
جعلت الدينار صداقا وتزويجاً صحيحاً .
فقال الرجل :

— لك ذلك ، إذا جمع لي ما ذكرت .

فأجلسته في صدر الدار وخلعت خمارها . ورأى
الرجل جمالها . فذهب عقله . وقامت الجارية . فقال لها :
— إلى أين جعلت فداك ؟
— ألبس وأتھياً ..

فصاح الرجل :

— بالله لا تمسى غمراً ولا طيباً ، فحسبك بدلاك

وعطرك ...

فابتسمت له ابتسامة أجهزت عليه . وذهبت .

وجاء الغلام ، فحيا الرجل أجمل تحية ، وأسرّ له فى أذنه :

— أخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

— لا والله . ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

— لعلها نسيت تخبرك . هى والله أفتك من « عمرو

ابن معديكرب » وأشجع من « ربيعة بن مكدم » ،

ولست بواصل إليها حتى تسكر ويغلب على عقلها ،

فإذا بلغت ذلك الحال ففيتها مطمع .

فقال الرجل :

— ما أهون ذلك وأسهله !

فأردف الخادم :

— ثم شيء آخر .

— ما هو ؟

— أعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها وتراك
مجرداً مقبلاً مدبراً .

فقال الرجل :

— وهذا أيضاً أفعله .

وتركه الغلام ومضى . وأقبلت الجارية تموج ظرفاً
وتيس لطفاً ، فقالت :

— هلم دينارك !

فأخرج الرجل ديناراً نبذه إليها . فصفقت . فأجابها
العبد . فقالت له :

— قل لأبي الحسن وأبي الحسين هاتماً الساعة !

ومضى قليل . فإذا شيخان خاضبان نبيلان ، هما
أشعب وبنان ، قد أقبلأ فصعدا . فقصت الجارية عليهما

القصة . وغمرت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجل .
فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعيا الرجل فأقر
بالتزويج وأقرت الجارية . ودعوا الشاهدان بالبركة ، ثم
نهضا وخرجا . واستحيا الرجل أن يحمل المرأة شيئا من
المؤونة فأخرج دينارا آخر دفعه إليها وقال :
— اجعلي هذا لطيبك .

فقالت له .

— يا أخي ، لست ممن يمس طيباً لرجل ، إنما أتطيب
لنفسى إذا خلوت .
فقال لها :

— فاجعليه إذن لعشائنا الليلة .
قالت :

— أما هذا فنعم .

ونَهَضَتْ فَأَمَرَتْ بِإِصْلَاحِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ . ثُمَّ حَادَتْ
وَأَقْبَلَ الْمَسَاءَ ، فَدَعَتْ بِالْخَوَانِ وَالنَّبِيدِ . فَتَعَشَيَا وَشَرَبَا .

وأمسكت بالعود واندفعت تغني :

راحوا يصيدون الطباء وإنني

لأرى تصيدها عليّ حراما

أعزز عليّ بأن أروّع شبهها

أو أن تذوق عليّ يديّ حماما

فكاد الرجل يحن سرورا وطربا . وقال لها :

— جعلت فداك ، من يغني هذا ؟

قالت :

— اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغني به ابن

سريج وابن عائشة .

وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه . ثم

غنت بصوت لم يفهمه للشقاء الذي كتب عليه :

كأنني بالمجرد قد علتـــــــــــــــــه

نعال القوم أو خشب السواري

فقال لها :

— جعلت فداك ، ما أفهم هذا البيت ، ولا أحسبه

مما يتغنى به !

قالت :

— أنا أول من تغنى به .

فقال :

— إنما هو بيت عابر لا ثانى له ؟

قالت :

— معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به .

فسكت الرجل . وجعل لا ينازعها في شيء إجلالا

لها ، إلى أن أذنت العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصلى

العشاء ، وما يدرى كم صلى عجلة وشوقاً . وفرغ من

صلاته فأقبل عليها يقول :

— تأذنين جعلت فداك في الدنو منك ؟

قالت :

— تجرد !

وأشارت إلى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد ، فكاد
الرجل يشق ثيابه عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين
يديها . فقالت له :

— إمض إلى زاوية البيت ، وأقبل وأدبر ، حتى
أراك مقبلاً ومدبراً !

وإذا في زاوية البيت حصير في الغرفة على الطريق
تخبط الرجل عليه . وإذا تحته خرق إلى السوق . وإذا
الرجل يجد نفسه في السوق مجرداً عارياً كما ولدته أمه
وإذا الشيخان الشاهدان «أشعب وبنان» قد أعدّا نعالهما
على قفاه ، واستعاناً بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظما
صحيحاً . وبينما الرجل يُضرب بنعال مخصوفة وأيد
مشدودة ، اذا صوت تغنى به الجارية من فوق البيت :

ولو علم المجرد ما أردنا

لحاربنا المجرد بالصحاري

فقال الرجل في نفسه :

— هذا والله وقت هذا البيت !

أمعن أشعب وبنان في هذا السبيل بمثل هذه
الأساليب ، حتى ضجت الناس وعمت الشكوى . وبلغ
الأمر والى المدينة وكان شديد الورع ، صارم الخلق ،
عبوس الوجه . فأرسل في طلب هذين المفسدين ، وأمر
بهما للفور فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطاً .
وأمر بأموالهما الحرام فضمت إلى بيت المال .

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا
كارثة ذهاب المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى
فأذن له . فبكى بين يديه وتباكى وقال :

— أصلحك الله ! أنجرد من ثيابنا ومن مالنا في

يوم واحد !

فقال له الوالى :

— يا عدو الله ! لقد كنتم تجردان الناس من هذا
وذاك في ليلة واحدة .

ورأى أشعب أن لا حيلة له مع هذا الوالى إلا أن
يضحكه ، فلعله إن ضحك عفا . فجعل يقص عليه طريف
النوادر والوالى فى إطراره وتقطيبه وعبوسه لا يعبر
وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطاً .

فرفع الوالى رأسه وقال له :

— لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر
لكان أولى بك .

فقال أشعب :

— قد فعلت .

فقال له الوالى :

— أسمعنى ما حفظت من الحديث ؟

فمتحنح أشعب ثم قال :

— حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه

وسلم قال : من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصاً
مخلصاً .

فقال الوالى :

— هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فخار أشعب وتفكر لحظة ثم قال :

— نسى نافع واحدة .

فقال الوالى :

— والأخرى ؟

فقال أشعب :

— الأخرى ... نسيته أنا .

فلم يجب الوالى . ولم يزد على أن أمر بأشعب

فضرب ثلاثين أخرى ...

الفصل التاسع

جعل أشعب وبنان يطوفان في الأسواق متجردين
من ملهما وقد أعياهما الجوع وضائق بهما الحياة . ولم يبق
لهما مما سلف ، غير ذكرى تعاود أشعب في كل ليلة ،
فيرفع عقيرته صائحا .

شربنا كوؤوس السعد حتى كأننا
ملوك لهم في كل ناحية وفر
فلما اعتلت شمس النهار رأيتنا
تخلى الغنى عنا وعادونا الفقر
وأتبعهما كثرة المشى فقال بنان :

— مالنا نمشى في غير حاجة ؟

فقال أشعب :

— صدقت . والله لقد أنسانا العز وصايا أماتدة

التطفيل رحمهم الله . لقد جاء في بعض نصائحهم الذهبية :
« لا تمس إلى موضع لا تمضغ فيه شيئاً »
فقال بنان :

— لو عرفنا موضع المضغ ...

فأجاب أشعب :

— لمشينا إليه دهرأ .

وتنهد الرجلان ، ومضيا في السير . وإذا الفرج
يلوح لهما عن كشب في هيئة عرس في طرف المدينة ، قد
نمت أنواره عن عظم شأنه . فصاحا معاً صيحة واحدة .
وركضا إليه . ولكنهما وجدا دونهما بابا قد ارتج وبوابا
وقاحا غليظ الطبع يسب من لا يعرف من القادمين ،
ويدفع بيده في صدورهم . فعلما أن لا سبيل إلى الدخول
إلا بالحيلة . فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمراً .
وانطلق أشعب من ساعته يسأل عن صاحب
العرس إن كان له ولد غائب أو شريك في سفر ، فعلم أن له

ولدا في اليمن هو أخ للعروس ، فأخذ في الحال ورقة ييضاء
فطواها وختمها وليس في بطنها شيء وجعل العنوان :
« من الأخ إلى العروس » ثم أقبل متدللاً ، فققع الباب
قعقة شديدة ، فقال له البواب :

— من أنت ؟

فقال أشعب :

— أنا رسول من عند أخي العروس .

ففتح له الباب . وتلقاه صاحب البيت فرحاً

قائلاً له :

— كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

— بأحسن حال وما أقدر أن أكلمك من الجوع .

فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم إلى أشعب ،

فجعل يأكل . ولم يطق صاحب الدار انتظاراً فقال :

— أما معك رسالة ؟

فقال أشعب : ○○○

— نعم .

ودفع إليه بالورقة . فأخذها الرجل فوجد خاتمها
طريا . فقال :

— أرى الطين طريا ؟

فأجاب أشعب وفمه منتفخ بالطعام :

— نعم ، وأعجب من هذا أنه ليس في بطن
الرسالة ولا حرف واحد ، لأن ولدك من العجلة لم يكتب
فيه شيئا .

فنظر إليه صاحب العرس شزرا وقال له :

— أطفيلي أنت ؟

فأجاب أشعب وهو يمضغ :

— نعم ، أصلحك الله .

فقال الرجل :

— كل ، لا هناك الله !

أما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول . ثم تذكر
أن في يده خاتماً بقي له من أيام العز . فذهب من فوره إلى
بقال فرهنه عنده على عشرة أقداح ، وجاء إلى باب
العرس يصيح :

— يا بواب افتح لي !

— من أنت ؟

— أراك لا تعرفني . أنا الذي بعثوني أشتري لهم
الأقداح .

ففتح له البواب . فدخل بنان فأكل هو أيضاً
وشرب مع القوم ، حتى فرغ فقام وأخذ الأقداح وخرج
فردها على البقال واسترد خاتمه .

لم تكن الحيلة تنقص أشعب وبنان . إنما الذي كان
ينقصهما هو العلم بموضع الولايم والأعراس . فإن دون

ذلك ، البحث الطويل والجهد الكثير . ولم يفتح الله عليهما
بحل لهذه المعضلة . إلى أن خطر على بال بنان يوماً خاطر
فقال لصاحبه :

— لا يعرف مكان الولايم والأعراس غير غلمان
الأزقة والطرق . فإنك لتراهم منتشرين في كل مكان ،
ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من تشرّد
مثلهم . فأوص الأشد من أولادك أن يأتينا بالأخبار .
وكان الحق فيما قال ، إذ لم يمض يوم حتى جاء ابن
أشعب يجري ، فأخبرهم أنه مر بباب قوم عندهم وليمة .
فأسرعوا ثلاثتهم إلى تلك الدار ودخلوا . وإذا صاحب
البيت قد وضع سالماً ، فكلما رأى شخصاً لا يعرفه قال
له : « اصعد يا أبنى » . فصعد بنان وأشعب وابنه فوجدوا
أنفسهم في غرفة مفروشة . وتوالى الصعود إلى هذه
الغرفة حتى وافى فيها ثلاثة عشر طفلياً . ثم رفع السلم .
ووضعت الموائد في أسفل الدار . وبقى أشعب ومن معه

في العلو ينظرون متحيرين . فقال بعضهم :

— ما صر بنا مثل هذا قط .

فنظر أشعب إلى الحاضرين مليا وقال :

— يا فتيان ما صناعتكم ؟

فقالوا :

— الطفيلية .

فقال لهم :

— ما عندكم في هذا الأمر الذي وقعنا فيه !

فأجابوا :

— ما عندنا فيه حيلة .

فقال لهم :

— وإذا احتلت لكم حتى تأكلوا وتنزلوا ، تقرون

لي أنني أعلمكم التطفيل ؟

فنظروا إليه وقالوا :

— ومن تكون أنت بالله ؟

فقال :

— أنا أشعب .

فقالوا للفور :

— قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا .

فقام أشعب ، وأطل على صاحب الدار وضيوفه
يا كلون ، فصاح به :

— يا صاحب البيت !

فرفع الرجل رأسه قائلاً :

— مالك ؟

فقال له أشعب :

— أيهما أحب إليك ، تصعد إلينا بخوان كبير
نأكل وننزل ، أو أرمي بنفسى رأسيا من هذا العلو
فيخرج من دارك قتيل ويصير عرسك مأتماً ؟
ثم جعل أشعب يجر سراويله ، كأنه يريد أن يعدو
ويرمى بنفسه . فجعل صاحب الدار يقول :

— أصبر ، ويلك ، لا تفعل !

ثم أصدد إليهم خواناً ، انقضوا عليه انقضا
جوارح الطير ...

وجعل ابن أشعب يأكل ثم يشرب ثم يأكل .
حتى لم يبق شيء يؤكل فقاموا . وعند ذلك ... انتهى
أشعب بابنه ناحية ولطمه هامساً :

— لو جعلت مكان كأس الماء الذي شربته لقيمت .
فأجاب الابن من الفور :

— إن كأس الماء يوسع محلاً للقم .
فتأمل أشعب كلام ابنه لحظة ، ثم صفعه ثانية وقال :
— لم لم تنبهني إلى ذلك قبل جلوسنا إلى الخوان !

الفصل العاشر

منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيليين
الثلاثة عشر يختلفون إلى أشعب ، ويجلسون حوله في
طرف من أطراف السوق ، يستمعون إلى حديثه ويتلقون
نصحه . ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل . وجعل
أحيانا يحمل إلى أشعب بعض الطعام ويتلطف له
ويترضاه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان
يلح عليه إلحاحا ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا
التلميذ إلى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين
يديه كما يقعد كل يوم قائلا له :

— إنصحني !

فوضع أشعب الطبق في حجره وطفق يأكل ...
ثم تنحنح وقال :

— إذا دخلت عرسا ، فلا تتلفت تلفت المريب ،
وتخير المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام فلتمض ،
ولا تنظر في عيون الناس ، ليظن أهل المرأة أنك من
أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ،
فإن كان البواب غليظا وقاحا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من
غير أن تعنف عليه ولكن بين النصيحة والأدلال ...
وسكت أشعب واشتغل بالتمر ، فقال التلميذ :

— زدني !

فقال :

— إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره
قط ، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً .

— زدني !

— وإذا دعيت إلى وليمة إن شاء الله ، فإياك ثم إياك
أن تتأخر إلى آخر الوقت ، بل استخر الله وكن من
السبق وأول من يوافي ، واعلم أنه ليس يجيء في أول

الأوقات إلا جلة الناس وسراتهم ، ففعودك مع مثل هؤلاء
فائدة ، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل
حديث حسن وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسع
الموضع طيب المكان ، فالزم هذه الطبقة لا يزال سوادك
بياضهم فتهلك ، فهؤلاء هم الذين يعرفون حقك ويكرمونك
ويجلونك ويحلفون بحياتك وتعرف السرور في وجوههم ،
فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولد لهم ! . . . وعودك
على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، اعلم يا مغفل
أنك أول من يغسل يده ، والخوان بين يديك ، وأول
القنينة أنت تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ، وأول
من يتبخر أنت . ثم إنك تأكل رؤوس القدور ، وكل
شيء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ، والخباز نشيط
ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شيء من أمرك مستور
أما إذا تأخرت أو تكاسلت إلى آخر الوقت ، فقد عطبت
وهلكت . فإنك تصادف الطعام باردا وهو فضلات

القدور ، والرقاق بقايا عجين ، فقد استعملوا الجيد ، والماء
سخنا ، وصاحب الوليمة ضجرا متبرما . ذلك أنه لا يقعد
على آخر مائدة إلا ضعفى الجيران ومساكين المكان
والقوام . فاذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا سارعوا
إلى الخوان » نهضوا مزدحمين فانبسطوا فى ميدان المضغ
ورفعوا قناع الحشمة وألصقوا الأكتاف بالأكتاف
كانهم بنيان مرصوص ، يأكلون ميمنة وميسرة ،
وتدور أيديهم على الخوان شرقيا وغربيا وتسمع للقم فى
حلقهم معمة . فإن قدم لهم جداء وحملا ن فأنما يقدم
الجدى أضلاع بلالحم ، فوقه جلد وحوله « خس » و« هندبا »
كانه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقي القصب قائما .
فإذا يكون حال من يأكل مع هؤلاء ؟ إنه يخرج من
العرس وما معه من العرس إلا شم الطعام وتمشيش
العظام ...

وسكت أشعب . فقال صاحبه :

— زدنى .

فقال أشعب :

— وإذا قت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد فى
وسط الدار يضربك الهواء ، وادع بالشراب ، فإن
أتوك بنبيذ فهو أحب إلى رطلا أو رطلين ولا تصب
فيه ماء . وإن حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تقعد فى
الصدر ، فإن القعود فى الصدر قعود مغن أو مخرف .
وإن كان فى البيت فأكهة كثيرة فاجذب منها إليك ،
إذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شيء . ولا تكن
أنت الساقى . وكن ذنباً ولا تكن رأساً . وإن كان
فى المجلس مغنية أو جارية حسنة الوجه فاتق الله فى
نفسك ولا تولع بواحدة منهما والزم العافية . وإذا
دار النبيذ فى الأقداح فإياك أن تسكر وأن يرى القوم
منك زلة أو كلمة غلط فتخرج وقد انتهكت سترك عندهم .
فإنك إن خلطت وولعت ومزحت فإنما هو صفع كله

وعداوة بين جيرانك . اشرب خمسة أقداح أو ستة
أقداح أو سبعة أقداح ولا تسكر . فإن خشيت على
نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك . وإنما شرحت
لك كل هذا تفصيلا رغبة في إسداء النصيحة ، فافهم
تعلم ، وتعلم بأدب ، متعلك الله بسعة الصدر وطيب
الأكل والصبر على المضغ . إنها دعوة مغفول عنها .
وسكت أشعب . وسكت تلميذه . وإذا جماعة
من أصحابهما الطفيليين قد أقبلوا يتصايحون مهللين .
فعلم أشعب أنها وليمة . فوثب على قدميه وقام التلميذ
لقيامه . وصاح أشعب في الجماعة :

— أين ؟

فقالوا :

— اتبعنا .

فشمر عن ساقيه وقال لهم :

— بل اتبعوني أنتم !

فساروا في أثره . ومشى هو على رأسهم ، ينظر إلى
السماء ويدعو الله قائلاً :

— اللهم لا تجعل البواب لكأزاً في الصدور ،
دفاعاً في الظهور ، طراحاً للقلانس . هب لنا رأفته
وبشره وسهل لنا إذنه !

وبلغوا باباً كبيراً قد رش الطريق أمامه وكنس .
فاعتدل أشعب ، وانتفخ في ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار
متهادياً متعالياً متباطئاً . ودخل غير ناظر إلى البواب .
فأفسح له البواب غير مجترئ على اعتراضه . وقد ظن
أنه ذو مقام . وتبعه صبيانهم وهم يشيرون إليه وينظرون
إلى البواب كأنهم يقولون له :
— نحن أصحابه وخلانه .

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول .
وما شعر أن قدميه في الدار هو وأصحابه حتى أسرع
فجلس وأجلسهم حوله ... ودعى بالطعام ، وحضرت

الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة الناس .
ونظر أشعب إلى مائدة شهية توضع أمامهم . فالتفت
إلى أصحابه وقال لهم :

- افتحوا أفواهكم ، وأقيموا أعناقكم ، وأجيدوا
اللف ، وأشرعوا الأكف ، ولا تمضغوا مضغ المتعللين
الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة
المضطرب !

وشمر عن ساعده . وإذا تلميذه قد تعلق بكفه
قائلاً له :

- إنصحنى !

فنظر إليه شزراً . فليس هذا وقت النصائح .
والكلام الساعة يفوت عليه المنفعة وأية نصيحة
يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه .
ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه وأطباقه في أوقات العسر
والمحنة . فتلطف له وقال :

— أنظر إلى ولا تخالفني على كل ما أقول !
وجاءوهم بقصعة عليها « سمدان » . فقال أشعب
لتلميذه :

— كل من الأحمر . فإن فيه طعمين : طعم السكر
وطعم الزعفران .
ولم يدعه يأكل غيره . ثم أتوهم « بالهريسة » فقال
أشعب لصبيه :

— كل منها لقمة أو لقتين أو ثلاثة .
فأكل التلميذ القدر الذي أمر به ، ولم يزد . وجاءوهم
« بالزيرباج » الأحمر :
فقال أشعب :

— كل لقمة أو لقتين .
ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال له :
— لا تأكل إلا لقمة أو لقتين ولا تكثر ، وأولع

يهذا الخبز اليابس الذى فى القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

— كل لقمة أو لقمتين .

ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :

— لا تأكل منه شيئاً وابق نفسك . فإن فى كل

يوم نصيب الشواء « بدائق » يقوم مقام هذا ويكفيك .

ثم جاءوهم « بالفالوج » ، وكان كثيراً شبيهاً

بالصومعة ، فقال لتلميذه :

— إيت من تحت حتى ينهار ، وكل وأكثر ،

فإنك لا ترى هذا فى كل يوم .

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

— أزوج وثلاث . فإن متّ فى هذا متّ شهيداً !

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمن مشوى ، فهوى

عليه وأكل منه اثنين أو ثلاثة وقال لصاحبه :

— كل ولا تقصر ، فإن قيمة هذه ثلاثة دنانير ،

فلا تأكل إلا ما له قيمة !

ولبت أشعب وأصحابه على هذه الحال . وقد شغلهم أمر بطونهم عن مائدة عظيمة في ناحية من المكان قد وضعت أمام والى المدينة . ولم يفتن أشعب إلى وجود والى . ولكن والى فطن إليه . وعرفه ، ولكنه كتم ذلك . ومال إلى صاحب البيت وقال له :

— من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان

الأخضر ؟

فقال صاحب الدار :

— أصلح الله الأمير ، هذا رجل يقال له أشعب ،

يشهد هذه الولايم دعى أو لم يدع .

فقال والى :

— إذا أكل جئني به .

وفرع الناس من الطعام ، ورفعت الموائد . فأسرع

صاحب البيت إلى أشعب وأحضره إلى والى . فلما

صار بين يديه ، قال له الوالى :

— هل دعاك أحد إلى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب فى الحيرة وقال :

— لا ، أصلحك الله !

فقال الوالى :

— ألا تعلم أن من جاء إلى طعام لم يدع إليه دخل

سارقاً وأكل حراماً ؟

فقال أشعب :

— لا والله ما أكلت إلا حلالاً .

فنظر إليه الوالى دهشاً :

— كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

— أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زد فى كل

شئ » ؟ وإذا أراد أن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين

وهو يقول : « قد يجيئنا من نريد ومن لا نريد » ؟ ! .
فأنا ممن لا يريد .

فابتسم الوالى وأعجبه الجواب وقال لأشعب :
— لقد اقتصصنا منك فيما مضى . ذاك حق المسامين
ولكن اليوم ... سلى حاجتك ؟
فقال أشعب :

— أطل الله بقاء الأمير ! حاجتى ... تكتب لى
منشوراً لا يدخل على أحد فى هذه الصناعة إلا ويدى
عليه مطلقة .

فضحك الوالى وهمس فى أذن صاحب الوليمة ثم
أمر لأشعب بهدية ، وأمر صاحب الوليمة له أيضاً بهدية .
فخرج أشعب بأطباق من كل لون ...

الفصل الحادي عشر

لبث أشعب أياما يسير في الأسواق في غير شيء،
ينتظر أن يوافيه أحد بخبر عرس أو وليمة وهو
ينشد ويعنى :

كل يوم أدور في عرصة الدار
أشم القطار شم الذباب
فاذا ما رأيت آثار عرس
أو دخان أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون التقم لا أهرب
سبا أو لكزة البواب

وطال انتظاره . ووقف على رجل يعمل طبقاً من
الخيزران فقال له :

— أسألك بالله أن توسعه قليلا وأن تزيد فيه طوقا

أو طوقين .

فرفع الخيزراني رأسه وقال له :

— وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

— لا ، ولكن ربما اشتراه شخص يهدي إلى

فيه شيئا ذات يوم .

ثم تركه ومشى . فرأى رجلين يتهامسان

ويتساران في طرف السوق . فوقف على مقربة منهما .

ينظر إليهما . وإذا تلميذه قد أقبل يقول له :

— لقد بحثت عنك في مجلسك من السوق .

فقال له أشعب على عجل :

— أوليمة ؟

— لا . ولكنه الشوق إلى حديثك .

فأشاح أشعب بوجهه عنه . وعاد إلى النظر في

وجه الرجلين المتهمسين ، حتى افترقا وذهبا . فقال
له تلميذه :

— أتعرفهما ؟

فقال أشعب وهو ينصرف خائبا مع صاحبه :
— لا ، ولكنى مارأيت اثنين يتساران إلا ظننتهما
يأمران لى بشيء .

وأطرق أشعب لحظة ، ثم رفع رأسه وقال
الصاحبه :

— كأنى بك لا تريد أن أزيدك فى النصيح .

فنظر إليه تلميذه :

— لماذا ؟

فقال أشعب متخائبا :

— ذلك أنى أرى أطباقك قد انقطعت ...

فقال الرجل :

— ليس عندى الآن ما يهدى .

فقال أشعب :

— أوليس عندك ما يؤكل ؟

فأجاب الرجل :

— إذا شئت فان داري دارك . فأنت ليس

منك حشمة . .

وقاد الرجل أشعب إلى بيته وأنزله ضيفاً عليه .

ودخل على امرأته فأوصاها أن تعد لأشعب عشاء طيباً .

وأكل أشعب ، ثم نظر في الدار وقال :

— عجباً ! أرى أنك من استواء الحال على قدر محمد

الله عليه . فما شأنك وصناعة التطفيل ؟

فقال الرجل :

— لقد علقته ولا طاقة لي بتركها .

فقال أشعب :

— لو أضفتي عندك أياماً أنصحك ، لما تركتك

إلا وقد حذقتها حذقا عظيماً !

مكث أشعب في دار الرجل أياماً طويلة حتى
ضجر وضجرت امرأته. فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة:

— يبقى إلى متى؟

— كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه؟

فقالت المرأة بعد تفكير:

— أنا أجيئك بالخبر.

فقال زوجها:

— كيف تستطيعين؟

فقالت:

— إلق بينى وبينك شراً ونتحاكم إليه وأجاذبه

الحديث.

ونهبوا من ساعتها فتشاجرا وتظاهرا بالغضب

والخصومة، وانطلقت المرأة إلى أشعب تقول له:

— بالذى يبارك لك في ذهابك غداً، أينما أظلم؟

فقال أشعب :

— والذي يبارك لي في مقامي عندكم شهرا ، ما أعلم !
فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع في
طول المقام . فسقط في أيديهما . ولم يعلما ما يصنعان .
واغتاز الرجل وفكر حتى اهتدى إلى حيلة ، فقال
لامرأته :

— إذا كان غداً فاني أقول له : كم ذراعا تقفز ،
فأقفز أنا من العتبة إلى باب الدار ، فإذا قفز هو فاعلني
الباب خلفه .

وكان الغد ، فأحكما التديير . وجعل الرجل يحتمل
في الحديث مع أشعب حتى قال له :

— كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

— جيد .

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله إلى

خارج الدار أذرعاً ... وقال لأشعب :

— ثب !

فتنهض أشعب ووثب لا إلى الخارج ، بل إلى
داخل الدار ذراعين . فوجم الرجل . وقال لأشعب :

— عجباً ! أنا وثبت إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت

وثبت إلى داخل الباب ذراعين ؟ !

فقال أشعب من فوره :

— ذراعين إلى داخل خير من أربعة إلى « برا » !

الفصل الثاني عشر

انفض الناس عن أشعب آخر الأمر . وهرب منه
تلاميذه ومريدوه . فقد أيقنوا أنه قد انتهى إلى الوقوع
على منازلهم وتطبيق أصول التطفيل على موادثهم . فلبث
أشعب أياما وحيدا حزينا لا يجد أنيسا ولا رفيقا ، ولا
يظفر بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان .
ولم يدر أين اختفى . فخرج يبحث عنه حتى قنط من
الاهتداء إليه ، فقمعد في أول السوق يفكر في أمر غده .
وإذا بنان قد أقبل يحمل قوسا ونشابا ويجر كلبا ، فمراه
أشعب حتى صاح به :

— أين كنت ؟ أخزأك الله !

فقال بنان :

— في الصيد ، خيبك الله !

— الصيد !

— نعم ، صيد الطير والظباء . إنه لعمل أجدى
عليك من هذا القعود تنتظر ما لا يجيء ، قم معى إلى
الرزق الحلال ، تستمتع بالصيد الشهى واللحم الطرى
والهواء النقي ...

فنظر أشعب إلى ما فى يد صاحبه وقال :

— واين لك بالقوس والنشاب ؟

— بعث خاتمى واشتريت كل ماترى .

— وأنا ماذا أصنع ؟

— إصنع مثل ما صنعت أنا .

— ليس عندى شىء يباع .

— أو ليس عند امرأتك أو عيالك شىء ؟

فنهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

— انتظرها هنا حتى أعود .

ومشى إلى بيته . وأشعب لا يذكر بيته إلا يوم

تضيق به الدنيا ، فصادف الكندى بالباب ...

فما رآه الكندى حتى خف إليه وعانقه عناق
المشتاق وقال له في صوت العتاب :

— ألا عدتني وقد كنت مريضاً ؟

فقال أشعب :

— جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندى :

— بعد أربعين يوماً من تاريخ اليوم الذي أهديتك

فيه القميص .

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام في نفسه :

— بعد أربعين يوماً من تاريخ البعثة بالقميص ! أي

منذ متى على التحقيق ؟ إن هذا التاريخ والله ولا التاريخ

القبطى !

ثم ترك الحساب والتفت إلى الكندى قائلاً :

— الحمد لله على كل حال ، إذ رأيتك وقد رد الله

إليك العافية .

ورأى أشعب أن ينتفع بهذا الشوق والود .

وحدثه نفسه أن يفضى إلى الكندي بما جاء له . فجلس

إلى جواره وتنحنح وقال :

— لى إليك حاجة .

فقال الكندي على عجل :

— ولى إليك أنا أيضاً حاجة .

فقال أشعب واجماً :

— وما حاجتك ؟

فقال الكندي :

— لست أذكرها لك حتى تضمن لى قضاءها .

فقال أشعب :

— نعم .

فقال الكندي :

— حاجتي أن لا تسألني هذه الحاجة .

فقال أشعب :

— إنك لا تدري ما هي ؟

— بلى . قد دريت .

— فما هي ؟

فقال الكندي :

— هي حاجة ، وليس يكون الشيء حاجة إلا وهي

تخرج إلى شيء من الكلفة .

فقال أشعب متخابها :

— هذا حق . ولكن ... أنت خير من يتكلف لي .

وقد جئتك أسألك أن تسلفني وتؤخرني ...

فقال الكندي :

— هاتان حاجتان .

فقال أشعب :

— نعم

فقال الكندى :

— وإذا قضيت لك إحداهما ؟

فقال أشعب من فوره :

— رضيت .

فقال الكندى :

— أنا أوخرك ما شئت ولا أسلفك .

فيئس أشعب منه . ولم ير في الكلام معه غير إنفاق

الوقت في غير طائل . فقام يريد الذهاب .

فتفكر الكندى لحظة ثم صاح به :

— والله لا تنصرف خائبا .

فوقف أشعب دهشا . ومضى الكندى يقول :

— أما الدرهم فأنت تعلم أن ليس من عادتي إخراج

فهو متى ألقى في الكيس سكن على اسم الله فلا يهان

ولا يذل ولا يزعج . أما إذا شئت فإني أهدي إليك قربة

من غسل الرطب ، جاءتنى هدية من البصرة فبعتها إن أردت واقض حاجتك !

فعجب أشعب . ولم يصدق أذنه . وأنكر ذلك من مذهب الكندى . ولم يعرف جهة تدييره . وهو يعلم أنه إنما يجزع من الإعطاء وهو عدوه . وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته ، وأنه لو أعطى أفاعى سجستان وثعابين مصر وحيات الأهواز لأخذها إذا كان اسم الأخذ واقعاً عليها . فكيف يعطيه هذه الهدية التى جاءتة ، بهذا الكرم ! وجعل أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندى يتمنع ويتعصر . ثم باح بسرّه آخر الأمر قائلاً : — هذه الهدية التى جاءتنى ، خسائرها أضعاف مكاسبها ؛ وأخذها عندى من أسباب الأدبار والدمار . فقال له أشعب :

— لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها برد

نظيرها !

فقال الكندي :

— هذا لم يخطر لي قط على بال .

فقال أشعب :

— هات إذن ما عندك من الأسباب ؟

فقال الكندي :

— أول ذلك كراء الجمال الذي ينقلها إلى البيت .

ثم هي على خطر حتى تصير إلى منزلي ، فإذا صارت إلى المنزل صارت سببا لطلب العصيدة والأرز . فإن بعثها فراراً من هذا ، صيرتموني شهرة وشنعة ، وإن أنا حبستها ذهبت في العصائد وأشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جذب السمن غيره ، وإن أنا جعلت هذا العسل نبيذا ، احتجت إلى كراء القدور وإلى شراء الماء وإلى كراء من يوقد تحته وإلى التفرغ له . فإن وليت ذلك الخادم اسود ثوبها وغرمتنا ثمن الأشنان والصابون . وازدادت في الطمع على قدر الزيادة في العمل .. فإن تغاضينا

وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو النديم أن
عندي نبيذا دق الباب دق المدل ، فإن حجبناه فبلاء ، وإن
أدخلناه فشقاء ، إذ لا بد له من دريهم لحم ومن طسوج
نقل وقيراط ريحان ومن أضرار للقدر وخطب للوقود ،
وهذا كله غرم ، إن رضيت به فقد شاركت المسرفين
وفارقت إخواني من المصلحين ، فإذا صرت كذلك فقد
ذهب كسبي من مال غيري وصار غيري يكتسب مني
وأنا لو ابتليت بأحدهما لم أقم له ، فكيف إذا ابتليت
بأن أعطي ولا آخذ ؛ أعوذ بالله من الخذلان بعد
العصمة .

أخذ أشعب القرية فأعطى نصفها عياله وحمل
النصف الآخر إلى السوق فباعه بما بلغ . وذهب إلى
بنان فأخبره الخبر فضحك ، وضحكا . ثم نهضا . وقال
بنان لصاحبه :

— هلمّ نشترى لك قوساً . فما معك يكفي
لشرائها ؟

فنظر أشعب إلى النقود في كفه وقال :
— أنا الآن في أمان من الجوع ليلتين أو ثلاث
أو أربع .

فقال بنان :
— أتضيع رأس المال في طعام ليلتين وتقعّد بعد
ذلك تتضور .

فقال أشعب :
— وهل تريد أن أضيع طعاماً مضموناً في يدي
بطعام ما زال هائماً في الخلاء والسماء قد يصاد وقد
لا يصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى أخذ
النقود في يده . فجذب صاحبه من كمه ومشى به قسراً
إلى البائع فاختر له قوساً ، وضعها في يده . فامسك بها

أشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لحملها .
فقال للبائع :

— كم ثمنها ؟

فقال الرجل :

— أقل ثمنها دينار .

فصاح أشعب :

— دينار ! والله لو انى إذا رميت بها طائراً فى
السما وقع مشوياً بين رغيفين ، مادفعت فيها ديناراً أبداً !
فنظر البائع إلى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان
فى الأمر وقال لصاحبه همساً :

— ليس فى الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسى هذه
بأكثر من دينار !

وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر رأى صديقه
وأسرع فأعطى البائع الثمن . وجذب ذراع أشعب .
وانصرف به ...

لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من
المدينة وضربا في الفلوات ، وأوغلا في الخلاء ... كل
يحمل قوسه ونشابه وخلفهما الكلب . وعيناها شائعة
بين الأرض والسماء ، يبحثان عن الصيد . ومضى النهار
وهما في مشى وبحث وكد وانتظار ، وإذا الكلب ينبح
فجأة وينطلق في أثر شيء مر أمامهما كالبرق . فنظرا ،
فاذا ظبي قد عنّ لهما . فوقفا . ووقف قلباهما من الفرح
والاضطراب . وأمسك كل بقوسه . ورمى بنان الظبي
فأخطأه . ورماه أشعب فأخطأه وأصاب الكلب .
وهرب الصيد ، ومات الكلب . وجلس الصيادان ،
وقد أضناهما التعب والجوع والفجيعة في ثالثهما ...

الفصل الثالث عشر

طال جلوس الصديقين وإطراقهما ، واشتد
جوعهما . فرفع أشعب رأسه وقال لصاحبه :

— قد جربنا صيد الأطباء فلنعد إلى صيد الموائد .

ثم نهض ونظر إلى الأفق فوجد نخلا كثيرا فقال :
— أرى قرية قريبة . هلم إليها .

وأمسك بيد بنان . وسارا حتى بلغا القرية ، فإذا
هما أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطمن
خدودهن ، ويضربن صدورهن . ورجالها قد كوى
الجزع أفئدتهم . والميت في صحن الدار قد سخن ماؤه
ليغسل ، وخيطة أثوابه ليكفن . فعلم أشعب وبنان أن
لا أكل ولا طعام في مثل هذه القرية الليلة . وخطر
على بال أشعب خاطر . ودفعه الجوع إلى الحيلة ، فغمز ،

صاحبه ، ثم تركه وتقدم إلى الميت فجس عرقه وصاح
في الناس :

— يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حي ، وإنما
عمرته بهتة . وأنا أسأله إليكم مفتوح العينين بعد يومين !
فقال الناس :

— من أين لك علم ذلك يا هذا ؟
فقال أشعب :

— إن الرجل إذا مات ، برد أسسته ، وقد لمست هذا
الرجل فعلمت أنه حي .

فتقدم الناس إلى الميت وجعلوا أيديهم في أسسته ،
ثم قال بعضهم لبعض :

— الأمر على ما ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال ...
وتركوا أشعب يصنع ما يريد ، فقام إلى الميت
فنزعه ثيابه ثم ألبسه عمامة وعلق عليه تمائم ، وألقه الزيت
وأخلى له الدار ، وقال للناس :

— دعوه ولا ترعوه ! وإن سمعتم له أنيننا فلا
تدخلوا عليه !

وخرج أشعب من دار الميت وقد شاع الخبر بأن
الميت قد ردت إليه الحياة . فانهالت الهدايا على أشعب
وبنان من كل دار . حتى ورم كيسهما فضة وذهباً ،
وامتلاً رحلهما سمناً وجبناً وتمرّاً . وجهداً في أن ينتهزا
فرصة للهرب فلم يجداها حتى حل الأجل المضروب .
وأقبل الناس على أشعب بعد يومين يستنجزونه الوعد ،
فقال لهم :

— هل سمعتم لهذا العليل أنيناً أو رابتكم منه حركة ؟
فقالوا :

— لا .

فقال لهم :

— إن لم يكن قد تحرك بعد أن فارقناه ، فلم يجيء
بعد وقته . دعوه إلى غد ، فاذا سمعتم صوته فعرفوني

لأحتال في علاجه ، وإصلاح ما فسد من مزاجه .

فقالوا :

— لا تؤخر ذلك عن غد !

فقال :

— لا .

وجاء الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء

أفواجا وصاحوا به :

— نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقليل .

فقال أشعب :

— قوموا بنا إليه !

وذهب معهم إلى الميت ، فحذر عنه التماس

وقال لهم :

— أنيموه على وجهه !

فأناموه . فقال لهم :

— أقيموه على رجله !

فأقاموه . فقال لهم :

— خلوا عن يديه !

ففعلوا . فسقط الميت رأسيا . ولم يدر أشعب

ما يفعل ولا ما يقول ، ولم يزد على أن همس :

— إنه حقيقة ميت .

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الأ كف .

وتناولوه القوم بالصفع والضرب ، وصار إذا رفعت عنه

يد وقعت عليه أخرى . ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت ،

فانسحل أشعب وبنان هاربين . حتى أتيا قرية أخرى على

شفير واد ، قد جار عليها السيل . وأهلها مغتمون

محزونون من خشية الغرق . فتقدم بنان وقد حدثته نفسه

أن يبز صديقه في الاحتيال ، فنظر إليه وابتسم ، ثم

صاح في أهل هذه القرية :

— يا قوم ! أنا أكفيكم شر هذا الماء . وأرد عن

هذه القرية ضرره . فأطيعوني !

فالتفت الناس إلى بنان في رجاء وقالوا له في الحال :
— وما أمرك ؟

فقال بنان :

— اذبخوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، وأتوني
بجارية جميلة عذراء . وصلوا خلفي ركعتين لله ؟ فان فعلتم
ذلك انثنى الماء عنكم إلى هذه الصحراء . فان لم ينثن
فدى عليكم حلال !
فقالوا جميعاً :

— نفعل .

وقاموا من ساعتهم فذبخوا البقرة ، وزوجوه
الجارية ، وقام بنان إلى الركعتين يصليهما ، وهو يقول :
— يا قوم ! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو في
القيام أو في الركوع ، فتي سهونا أو هفونا ذهب عملنا
باطلاً . واصبروا على الركعتين فمساقتها طويلة !..
وقام بنان للركعة الأولى فأطال الوقوف حتى كادت

تنخلع اضلاع الناس . وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد
راح في سبات . ولم يجرؤوا على رفع الرؤوس ، خشية
أن يذهب جهدهم في غير طائل . إلى أن جاء وقت السجدة
الثانية ، فأومأ بنان إلى أشعب ، وانسلا ، فأخذا طريق
الوادي ، وتركوا أهل القرية ساجدين ، لا يدري أحد
ما صنع الدهر بهم ...

مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان
مع الجارية الحسنة التي زوجها منه . وجعلوا يضربون في
الفلاة على غير هدى ، حتى أشرفوا على الهلاك . وإذا هم
يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا جماعة مسافرين
إلى البصرة ، فركبوا معهم . وقد اطمأنت قلوبهم وأمنوا
على أنفسهم وعلى الغنيمة ، وما كادوا يوغلون في بطن
الصحراء . حتى عنّ لهم فارس ، جعل ينظر في القوم ،
إلى أن وقع بصره على أشعب ، وراه وحيداً منفرداً

بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم إليه وقبل قدميه ،
فنظر إليه أشعب ، فوجد وجهاً متهللاً ، لفتى أخضر
الشارب ، ملآن الساعد ، قوى العضل ، ظريف اللحظ ،
لطيف الحديث .

فقال له :

— مالك ؟

فقال الشاب :

— أنا عبد بعض الملوك هم بقتلى ، فهمت على وجهى
إلى حيث ترانى . وأنا اليوم عبدك ومالى مالك .
فقال أشعب :

— بشرى لك وبك !

ورأت الجماعة ذلك ، فغبطت أشعب على هذا العبد
وهنأته ، وجعل العبد ينظر فتقتلهم أخطاه ، وينطق
فتفتنهم أفاضه . ثم قال :

— يا سادة ! إن فى سفح هذا الجبل عينا ، وقد

ركبتم فلاة طويلة ، نخذوا من هنالك الماء !
فلووا أعنة الجياد إلى حيث أشار . وبلغوا الجبل
وقد صهرت المهاجرة الأبدان .
فقال لهم :

— ألا تقيلون في هذا الظل الرحب ، على هذا
الماء الزلال !
فقالوا :

— أنت وذاك .

فنزّل عن فرسه . وحل منطقته . فما استتر عنهم
إلا بغلالة تنم على بدنه ، فما شكوا أنه خاصم الولدان
ففارق الجنة وهرب من رضوان . وعمد إلى السروج
فخطها وإلى الخيل فحش لها العشب . وإلى الأمكنة
فكنسها ورشها . وقد حارت البصائر فيه . ووقفت
الأبصار عليه .

فقال له أشعب :

— يا فتى ! ما ألطفك في الخدمة وأحسنك في
الجملة ! كيف أشكر الله على النعمة بك !
فقال :

— ما سترونه منى أكثر . أتعجبكم خفتى في
الخدمة وحسنى في الجملة ؟ فكيف لو رأيتمونى فى الجد
والفروسية ، أريكم من حذق طرفا لتزدادوا بى شغفاً ؟؟
فقالوا جميعاً :

— هات !

فعمد إلى قوس أشعب فأخذها ورمى فى السماء
سهما ، وأتبعه بآخر شق أجواز الفضاء وقال :
— سأريكم نوعاً آخر !

ثم عمد إلى كنانة بنان فحملها وإلى أكرم جواد
من جياد القوم فامتطاه . ثم رمى أحد الجماعة بسهم أثبتته
فى صدره ، وعاجل آخر بسهم طيره من ظهره .
فصاح أشعب :

— ويحك ، ما تصنع !

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

— اسكت يا لكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه

وإلا اختطففت روحه !

فلم يدر القوم ما يصنعون ؟ فخيّلهم مربوطة
وسروجهم مخطوطة وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب
وهم على أقدامهم ، والقوس في يده يرشق بها الظهور ،
ورأت الجماعة الجد والعزم في عين الفتى ، فشد بعضهم
بعضاً من الخوف وبقي أشعب وحده لا يجد من يشد
يده . فقال له الفتى :

— أخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أمّ لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد
الآخر ، وينزع ثيابه وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم
مما يملكون . وعاد فاعتلى فرسه ولكزه لكزة انطلقت
به انطلاق السهم في كبدة الفلاة ...

جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون
الذهب ولا الرجوع . ووقعوا في حيرة من أمرهم .
فقال قائل أن خير السبل امتطاء خيلهم والإمعان في السير
إلى البصرة وهي من موضعهم هذا أقرب البلاد إليهم .
فتزودوا من ماء العين ووثبوا إلى أفراسهم . وظلوا
سائرين حتى لاحت لهم قرية في طرف من أطراف
البصرة ، وكان الجوع قد أوشك أن يقتلهم . فما بلغوا
أول دار من دور القرية حتى وثبوا من فوق أفراسهم
فوجدوا أنفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ،
فنظر إليهم وقال :

— من أنتم ؟

فقالوا :

— أضياف لم يذوقوا شيئاً يؤكل منذ ليال ثلاث .

فابتسم الرجل وقال :

- إجلسوا ؟

وسكت طويلاً . ثم نظر في وجوههم ملياً . ثم
تنهد . ثم ابتسم . ثم تنحنح وقال لهم :

- ما رأيكم يا فتیان فی زبدة متوجة بعجوة خبير
الواحدة منها تملأ الفم ويوحل فيها الضرس ، عليها لبن
قد حلب من نوق مسمنة ، أتشتهونها يا فتیان ؟
فقالوا جميعاً :

- إى والله نشتهيها .

فقهقه الشيخ وقال :

- وعمكم أيضاً يشتهيها .

وصمت لحظة ، ثم قال :

- ما رأيكم يا فتیان فی عصيدة من دقيق قد نخل
حتى صار كأنه سحالة الذهب ، وسمن عربى بصرى أنضج
حتى قال : « بق بق بق » ، على حواشيها رقاق ملفوف
بلحم قد نم قطعه ، وفوه بالأبازير ، ومزج بالبصل ، وقلی

في الدهن . أفتشتهونها يا فتیان !

فاشرأب كل منهم إلى وصفه . وتحلب ريقهم
وتلمظوا وتعطقوا . وقالوا :

— إی والله نشتهیها .

فقهقه الشيخ وقال :

— وعمکم والله لا یبغضها .

وسکت برهة ، ثم قال :

— مارأیکم یا فتیان فی عنزة من نجد قدأ کلت

الشیخ ، والقیصوم والهشیم ، حتی وری نخها ، وکثر

شحمها وطاب لحمها . تنضج لکم من غیر امتحاش أو

إنهاء . وتقدم إلیکم علی خوان منضد بالبقل والخبز ،

فتوضع بینکم تتساقط عرقاً وتتسایل مرقاً . أفتشتهونها

یا فتیان ؟

فقالوا :

— إی والله نشتهیها .

فقال الرجل :

— وعمكم والله يرقص لها .

ولم تطق الجماعة أكثر من ذلك . فوثب بعضهم

إلى الرجل بالسيف قائلين :

— ما يكفي ما بنا من عض الجوع ، حتى تسخر

منا ! ..

وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونهم ويدعون عليه ...

وأسرعوا في الدخول إلى مدينة البصرة حيث تفرقوا ،

وذهب كل لشأنه . وأخبرت الجارية زوجها « بنان »

أن لها أهلاً في البصرة ، يضيفونهما فانطلق معها

بنان إلى أهلها . وتركوا أشعب وحده ...

الفصل الرابع عشر

جلس أشعب على رأس الطريق وحيداً غريباً في
هذا البلد لا يعرف أحداً فيه . ولا مال معه ولا زاد .
وقد أضرّ به الجوع ، فجعل يتنهد ويقول لنفسه :
— لعن الله المال الحرام ! كلما جمعناه ، ذهب عنا
سريعاً . وعدنا شراً مما كنّا !

وسمع خلفه جلبة ، فالتفت ، فرآى عشرة رجال
مجتمعين . فصاح :

— إنه الفرّج .

ونهمض نشيطاً ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول
في نفسه :

— ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة !

ولم يلبث أن جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضى

بهم ، حتى انتهوا إلى زورق قد أعدّ لهم . فأدخلوا الزورق
فقال أشعب لنفسه :
— هي نزهة .

ودخل معهم . وإذا هو يرى الرجال العشرة قد
قيدوا بالحديد ، وقيد هو معهم . وإذا هو يعلم أن هؤلاء
عشرة من الزنادقة ذكروا بالإسم للمأمون ، فأمر أن
يحملوا إليه . فجمعوا له . ولم يلبث أشعب أن وجد الزورق
قد وصل إلى بغداد . وإذا هو يساق ضمن العشرة ،
حتى أدخلوا على المأمون . وجعل المأمون يدعو بأسمائهم
رجلا رجلا ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى استوفى العدة
وبقى أشعب . فدهش المأمون وقال للموكلين :
— ما هذا ؟

فقالوا :

— والله ما ندرى يا أمير المؤمنين ، غير أننا وجدناه
مع القوم فجئنا به .

فالتفت المأمون إلى أشعب قائلاً :

— ما قصتك ويحك ؟

فصاح أشعب :

— يا أمير المؤمنين ! امرأتى طالق إن كنت

أعرف من أحوال هؤلاء شيئاً ولا مما يدينون الله به .

إنما أنا رجل طفيلى رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة .

فقال المأمون :

— ليس هذا مما ينجيك منى ، اضربوا عنقه !

فصاح أشعب :

— أصلحك الله ، إن كنت ولا بد فاعلا فأمر

السياف أن يضرب بطنى بالسيف فانه هو الذى ورطنى

هذه الورطة !

فالتفت المأمون إلى رجاله وقال :

— يؤدب .

فخرجوا بأشعب وهو ينتفض فى ثيابه رعباً .

وكان وزير المأمون : إبراهيم بن المهدي قائماً على رأسه ،
فلما رأى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامه ، وما تمالك
أن قال :

— يا أمير المؤمنين هب لي ذنبه ، وأحدثك عن
حديث عجيب عن نفسي وقد عشت مثله حياة التطفل
ليلة ! .

فاشتاق المأمون إلى الحديث وقال :

— قل يا إبراهيم !

قال إبراهيم بن المهدي :

« خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ،
فطفت في سكك بغداد ، فانهيت إلى موضع ، فشممت
روائح أبازير قدور قد فاح طيبها ، فتأقت نفسي إليها ،
فوقفت على خياط فقلت :

— لمن هذه الدار ؟

قال:

— لرجل من التجار .

قلت :

— ما اسمه ؟

قال:

— فلان بن فلان .

فنظرت إلى الدار فإذا بشباك فيها مطل ، فرأيت
كفا قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم .
فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن
رائحة القدور . وبقيت باهتا ساعة . ثم أدركني ذهني
فقلت للخياط :

— أهو ممن يشرب ؟

قال :

— نعم وأحسب أن عنده الليلة دعوة ، وليس
ينادمه إلا تجار عمله مستورون .

فبينما أنا كذلك إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان
من رأس الدرب . فقال الخياط :
— هؤلاء منادموه .

فقلت :

— ما اسمهما ؟ وما كنههما ؟

قال :

— فلان وفلان .

فخركت دابتي وداخلتهما . وقلت لهما :

— جعلت فداكما ، قد استبطأكما أبو فلان أعزّه الله .

وسايرتهما حتى بلغا الباب ، فأدخلاني وقدماني .

فدخلنا . فلما رأني صاحب المنزل لم يشك أنني منهما

بسبيل ، أو قادم قدمت عليهما من موضع . فرحب بي

وأجلسني في أفضل مكان . وجيء بالمائدة وعليها خبز

نظيف ، وأتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أطيب من

ريحها . فقلت في نفسي :

— هذه الألوان قد أكلتها ، وبقى الكف والمعصم
كيف أصل إلى صاحبتهما ؟ .

ثم رفع الطعام ، وجاؤونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا
إلى بيت المنادمة ، فإذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين .
وجعل صاحب المنزل يلطف بي ويميل عليّ بالحديث ،
والندماء لا يشكون أن ذلك منه على معرفة متقدمة .
حتى إذا شربنا أقداحا ، خرجت علينا جارية كأنها بان ،
تتشى كالخيزران . فأقبلت فسلمت غير خجلة ، وثنيت
لها وسادة فجلست ، وأتى بالعود فوضع في حجرها ،
فجسته فاستبنت في جسها حذقها . ثم اندفعت تغنى :

توهمها طرفي فأصبح خـدـها
وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصاخها كفى فآلم كفها
فمن مس كفى في أناملها عقر

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها . ثم
اندفعت تغنى :

أشرت إليها هل عرفت مودتي
فردت بطرف العين إني على العهد
لخذت عن الإظهار عمداً لسرها
وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد
فصحت «يا سلام» ... وجاءني من الطرب ما لا أملك
نفسى . ثم اندفعت فغنت الثالث :

أليس عجيباً أن بيتاً يضمنى
وياك لا نخلو ولا نتكلم
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها
وتقطع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب
وتكسير أجفان وكف يسلم
فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها

بالغناء ، وإصابتها لمعنى الشعر ، وأنها لم تخرج عن الفن
الذى ابتدأت به ، فقلت : « بقى عليك يا جارية ... » ،
فضربت بعودها الأرض وقالت : « متى كنتم تحضرون
مجالسكم البغضاء ! » . فندمت على ما كان منى ، ورأيت
القوم كأنهم تغيروا الى . فقلت : « أما عندكم عود غير
هذا ؟ » قالوا : « بلى » . فأحضروا الى عوداً فأصلحت
من شأنه ، ثم غنيت :

ما للمنازل لا يجبن حزيناً
أصممن أم قدم المدى فبلينا
راحوا العشية روحة منكورة
إن متن متنا أو حين حيننا
فما أتمته حتى قامت الجارية فأكبت على رجلى
تقبلها وقالت :

— معذرة إليك ، فوالله ما سمعت أحداً يغنى هذا
الصوت غناءك ! .

وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا فعلها ، وطرب
القوم والله واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات
والطاسات .

ثم اندفعت أغنى :

أبي الله أن تمشي ولا تذكريني

وقد سفحت عيناى من ذكرك الدما

فردى مصاب القلب أنت قتلته

ولا تتركه ذاهل العقل مغرما

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي

لها غسل منى وتبذل علقها

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم . فأمسكت

عنهم ساعة حتى تراجعوا . ثم اندفعت أغنى الثالث :

هذا محبك مطوى على كمده

حرأمدامعه تجري على جسده

له يد تسأل الرحمن راحته
مما جنى ويد أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح :

— هذا هو الغناء والله يا سيدي لا ما كنا فيه !
وسكر القوم . وكان صاحب المنزل حسن الشرب
صحيح العقل ، فأمر غلامانه أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى
منازلهم . وخلوت معه .

فلما شربنا أقداحا قال :

— يا هذا ، ذهب ماضى من أيامى ضياعا إذ كنت
لا أعرفك ، فمن أنت يا مولاي ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر . فقام وقبل رأسى وقال :

— وأنا أعجب يا سيدي أن يكون هذا الأدب

إلا لملك ، وأتى لى أجالس الخلفاء ولا أشعر !

ثم سألنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبر

الكف والمعصم ...

فقال للجارية :

— قومي فقولي لفلانة تنزل .

ثم لم ينزل ينزل لى جواريه واحدة بعد أخرى ،
وانظر إلى كفها ومعصمها وأقول :

— ليست هي .

حتى قال :

— والله ما بقى غير زوجتى وأختى ، والله
لأنزلنهما إليك .

فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت :

— جعلت فداءك ، أبدأ بالأخت قبل الزوجة ،

ففساها هي !

فبرزت . فلما رأيت كفها ومعصمها .

قلت :

— هي هذه !

فأمر غلامانه ففضوا إلى عشرة مشايخ من جلة جيرانه ،

فاقبلوا بهم ، وأمر بیدرتین فیہما عشرون ألف درہم
فقال للمشایخ :

— هذه أختی فلانة أشهدکم أنى قد زوجتها من
سیدی إبراهیم بن المهدى ، وأمهرتها عنه عشرين ألفا .
ثم دفع إليها البدرۃ . وفرق الأخرى على المشایخ
وقال لهم : انصرفوا . ثم قال لى :
— یا سیدی ، أمهد لك بعض البیوت فتنام مع
أهلك ؟.

فاحتشمنى ما رأیت من کرمه ، فقلت :
— بل أحملها إلى منزلى .
قال :
— ما شئت .

فحملتها إلى منزلى . فوالله یا أمیر المؤمنین لقد
أتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بیوتنا ! .. فأولدتها
هذا القائم على رأس أمیر المؤمنین ... »

الفصل الخامس عشر

عجب المأمون لحديث وزيره ، ولتطفيله الظريف
تلك الليلة ، فأمر بإحضار أشعب الطفيلي . فجاء أشعب
يتعثر خوفا . فابتدره المأمون قائلا :

— هل لك في « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة

باللحم ، تفوح بروائح الأباذير ؟

فقال أشعب :

— وأضرب كم ؟

فكتم المأمون ضحكه وقال :

— بل تأكلها من غير ضرب .

فنظر أشعب إلى المأمون مليا ثم قال :

— هذا ما لا يكون ، ولكن كم الضرب فأقدم

على بصيرة .

فضحك المأمون ، وضحك وزيره . ثم التفت
المأمون إلى أشعب قائلاً :

— قد علمت أنك ذو بصر بالطعام . فما تقول في
« اللوزينج » و « الفالودج » . . . أيهما أطيب ؟
فأجاب أشعب :

— يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب .
فأمر المأمون ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللونان .
وقال لأشعب :

— اقض بينهما الآن .

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان . وجعل
يأكل من « الفالودج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة
وهو ساكت لا ينبس بحرف . وقد انتفخ فيه بالطعام
وازدحم حلقه من الازدرداد . فقال المأمون :

— قل . . . أيهما أطيب ؟

وقال الوزير :

— اقض لأحدهما .

فتردد أشعب و حار بين اللوين . ثم عاد فأخذ من
هذا لقمة ومن ذاك لقمة . وقال :

— يا أمير المؤمنين ! كلما أردت أن أقض لأحدهما
أدلى الآخر بحجته .

فضحك المأمون واستظرفه وقال له :

— تشهى على . . أى لون تريد ؟

فاطم أن أشعب وقال مترنماً :

ألا ليت خبزاً قد تسربل رائباً

وخيلاً من البرنى فرسانها الزبد

فأمر المأمون أن يحضروا له ما اشتهى . وجعل

ينظر إليه وهو يأكل حتى فرغ . فقال له :

— شبعت ؟

فقال أشعب :

— نعم أطال الله بقاء أمير المؤمنين .

وتأمل المأمون ثياب أشعب فلم ترقه . وقال له :

— لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول . ثم تفكر وقال :

— كانت عليّ أصلحك الله ثياب نظيفة . غير اني

قبل أن يأتوا بي إلى أمير المؤمنين كانت قد أخذتني
إغفاءة ، فرأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل .

فقال المأمون دهشا :

— وكيف ذلك ؟

فقال أشعب :

— رأيت أنني أحمل بكرة من ذهب ، فمن شدة

ثقلها عليّ كنت أسلح في ثيابي . ثم انتبهت . فإذا أنا
بالسلح ... ولا بكرة .

فضحك المأمون حتى استند إلى الوسادة . وقال :

— نحقق لك النصف الآخر . ولكن اخبرني

قبل ذلك . ممن أنت ؟

فقال أشعب :

— من المدينة يا أمير المؤمنين ؟

فقال المأمون :

— وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر أشعب كل ما وقع . فرأى الخير في أن

يوجز فقال :

— خرجت من المدينة للصيد فضلت ، وإذا أنا

في البصرة .

فنظر المأمون إليه مليا وقال له :

— وهل صدت شيئا ؟

فتنحس أشعب وقال كالمخاطب لنفسه :

— صدت الكلب .

فضحك المأمون . وأعجبه حديثه . ولبث يصغي

إليه وإلى نوادره ساعات طويلة . ثم قال له آخر الأمر :

— سل حاجتك .

فقال أشعب :

— كلب صيد أخطاد به .

فقال المأمون متعجباً ضاحكاً :

— قد أمرنا لك بكلب تصطاد به .

فقال أشعب :

— وغلام يقود الكلب .

فقال المأمون :

— قد أمرنا لك بغلام .

فقال أشعب :

— وخادم تطبخ لنا الصيد .

فقال المأمون :

— وأمرنا لك بمخادم .

فقال أشعب :

— ودار ناوى إليها .

فقال المأمون :

— أمرنا لك بدار .

فقال أشعب :

— بقي الآن المعاش .

فقال المأمون :

— قد أقطعتك ألف « جريب » عامرة ، وألف

« جريب » غامرة .

فقال أشعب :

— وما الغامرة ؟

فقال المأمون :

— التي لا تعمّر .

فقال أشعب من فوره :

— فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من صحارى

نجد وفياتى بنى أسد ؟

فضحك المأمون وقال :

— نجعلها لك إذن كلها عامرة .

فقال أشعب :

— لم يبق الآن إلا شيئان .

فقال المأمون :

— هات .

فقال أشعب :

— أن تقيم معي في هذه الضياع جارية حسنة

الصوت كنت أعلمها الغناء بالمدينة . يقال لها « رشأ » !

— وكيف هي ؟

فتنهذ أشعب وقال مترنماً :

كأنها أفرغت في قشر لؤلؤة

في كل جارحة منها لها قر

فقال المأمون :

— قد زوجناك منها وأمهرناها عنك عشرين ألف

درهم ! تلك واحدة . فما الأخرى ؟

فقال أشعب :

— الأخرى أن تسمح لي يا أمير المؤمنين أن أعتزل
صناعة التطفيل ، وأن أستخلف عليها خليفة من بعدى ،
وأن أكتب بذلك عهداً إلى صديق لي يدعى بنان ليكون
هو منذ اليوم إمام الطفيليين وعريفهم .

فضحك المأمون وقال :

— وذلك أيضاً لك .

ثم دعى بالكاتب والقرطاس . وقال لأشعب عيلي

عهده .

فقال أشعب للكاتب :

— اكتب :

« هذا ما عهد أشعب إلى بنان حين استخلفه على
إحياء سنته واستنابه في حفظ رسومه من التطفيل على
أهل المدينة ، وما يتصل بها من أكنافها ، ويجرى معها
من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة
الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ولما

رآه أهلاله من شده مكانه فى هذه الرفاهية المهمة التى
فطن لها ، والرفاعية المطرحة التى اهتدى إليها . والنعم
العائدة على لابسها بملاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ،
متوردا على من اتسعت مواد ماله ، وتفرعت شعب
حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وافظره
ببدائع الطبيات ، آخذا من كل ذلك بنصيب الشريك
المنصف وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض . وهذا عهدى
إليه . وحجتى عليه . فليكن بأوامره مؤتمرا ولرسومه
متبعا إن شاء الله وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو
حسبنا جميعا ونعم الوكيل .. » .

وسكت أشعب ونظر فإذا المأمون ووزيره
يتقطعان ضحكا ، وهذا المأمون فقال لأشعب :

— هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

— نعم ، حاجة أخيرة .

فقال المأمون :

— قل .

فقال أشعب :

— أن يأذن لي أمير المؤمنين في تقبيل يده !

فقال المأمون :

— أما هذه فدعها .

فقال أشعب :

— ما تمنعني شيئاً أحب إليّ منها !

وأسرع إلى يد المأمون فاخطفها اختطاف الجائع

للرغيف ، ورفعها إلى فمه ، وأشبعها لثماً وتقبيلًا . .

من كتابه

...

...

...

...

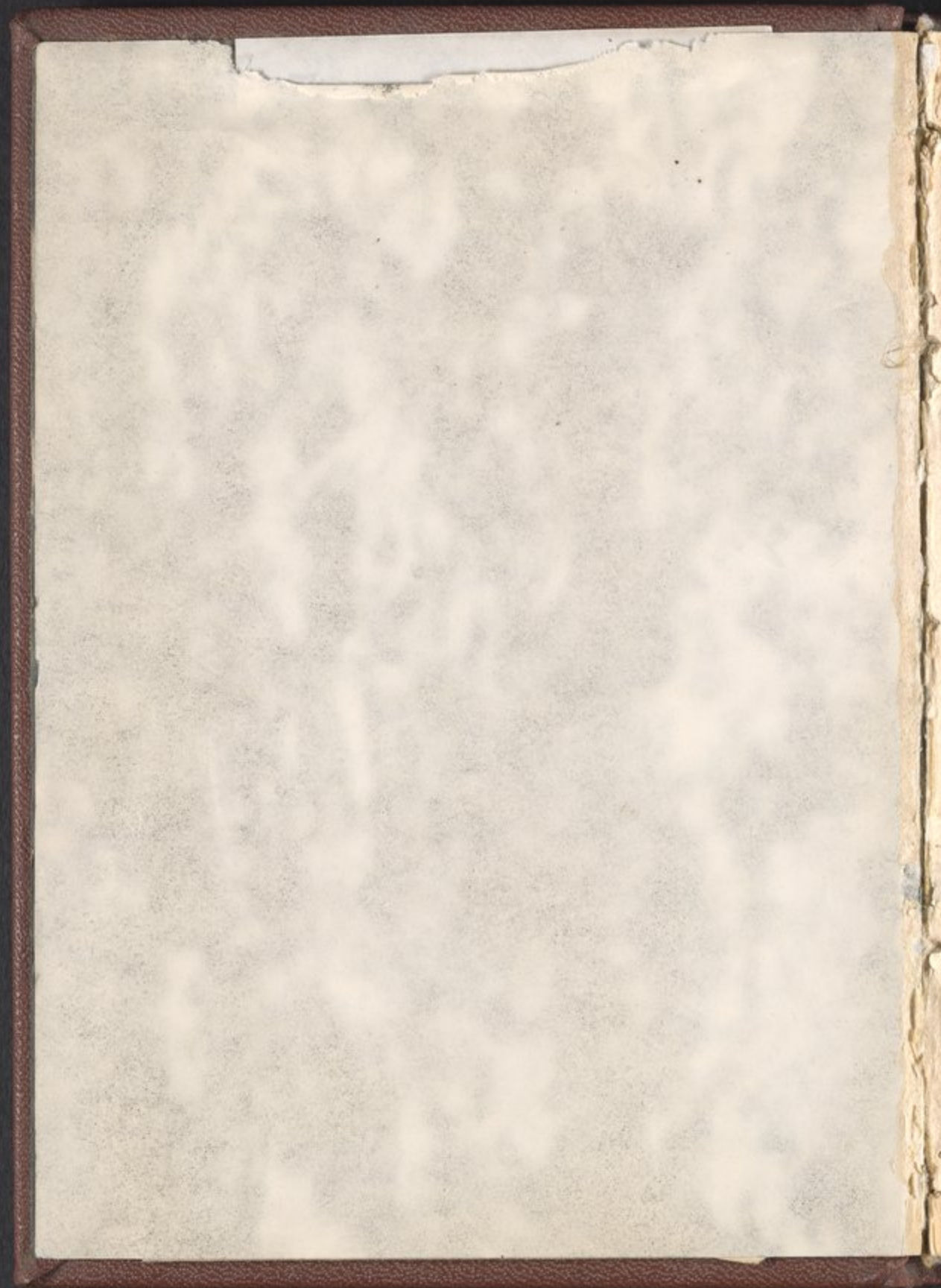
...

...

...

...

...



AUC - LIBRARY



DATE DUE

FEB 13 1989	A.U.C.
	19 NOV 1996
27 DEC 1990	A.U.C.
13 JAN 1991	11 JAN 1991
A.U.C.	
23 NOV 1993	
A.U.C.	
13 APR 1995	

DEC 1972

1958
c.2



1 0 0 0 0 1 0 7 6 6 7

